من وحى الأسماء وجلال الصفات

لله الأسماء الحسنى : لا لغيره .

فالله - لغة قلب ، ولغة عقل ، ولغة نفس ، ولغة حركة .

لغة قلب بالتوحيد

ولغة عقل بالتفكير

ولغة نفس بالرضى

ولغة حركة بالعمل وفى الحركة بركة

وأسماء الله الحسنى :

فيها مع العقيدة توحيد بحب ، وتشيد بفن ، ويقين بصفاء

فيها العبادة بالذكر الدائم . وكلما كان الذكر دائماً كان الفيض محققاً بعطاء المدد

يقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾ [الكهف]

كما يقول الحق جل علاه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) ﴾ [الأحزاب]

وهنا يطلب الحق الذكر بغير عدد ، لأن نعمه بغير عدد .

فمقدار ذكرك لله الفائض منه العطاء والفيض الذى لا يُحدّ .

اقرأ قوله تعالى :

﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما (٤٣) ﴾ [الأحزاب]

فبذكره - يخرج الإنسان من ظلام غاب فجره إلى ليل ابتسم على نهار يستقبل ضحاه ، وتجلى مع العقل مرآه ، وهنا نعيش فى عصر التوحيد تفريداً .

يقول الحق :

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين (١٦٢) لا شريك له .. (١٦٣) ﴾ [الأنعام]

وبهذا نكون قد تحكمنا فى العصر بقيم الله قبل أن تتحكم الحياة فينا .

من هذا المنطلق عشنا خواطر الشيخ الإمام الشعراوى فى مصاحبته لأسماء الله الحسنى .

فوجدنا فيها راحة للقلب

وواحة للروح

واستراحة للنفس

يقول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) ﴾

[فصلت]

ودليل الإحساس بالله منطق الفطرة في عالم القهر ، وعالم الأمر ، وعالم الاختيار .

فالعالم المقهور يوحده .

والعالم المأمور يسبحه .

والعالم المختار يذكره .

يقول الحق :

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾

[الحشر]

ولما كان القلب لا يستقر إلا بالله ، وبنور أسمائه الحسنى صفاتاً ، فلنا مع التوحيد لقاء ، ومع العبادة صفاء ، ومن خلال الأسماء الحسنى

جمال الأخلاق ، لهذا نقدم أسماء الله الحسنى بفيض الإمام وخواطره عندما يكون في حالة البسط مع الله ، حتى نحس نغم النشيد وجمال القصد خير مقصود ، نقدمها في شيء من الكمال مستمدين من الله عطاء الجمال ، حتى نتخلق بأخلاق الله من قيم صفاته وجلال ذاته على أن يكون هذا مستمر العطاء ، فقد يخرج الكتاب في أجزاء لا نحددها بعدد .

لأن مدد الله لا تنفد عطاياه .

وبين أيدينا الجزء الأول من أسماء الله الحسنى يليه أجزاء بقدر الفتوحات التي منحها الله لإمام العصر الداعي للحق بالحق .

بارك الله في عمره ، ليكون مدداً للأجيال الوافدة التي تنتظر المعارف من شيخنا العارف بالله .

في ظلال هذه الآيات ومع إشراقاتها نعيش مع الأسماء الحسنى والصفات العليا، فهي طريق الوصول إلى الله، مصداقاً لقول الله تعالى:

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها .. (١٨٠) ﴾ [الأعراف]

فإن حب العبد لذات الله يجعله يعيش في عطاء صفاته، فمن أحبَّ الذات وُهِبَ له نفحات الصفات.

وهذه الأسماء الحسنى هي الكمال كله، والجلال كله، بها الذكر، وفي ذكرها عطاء للفكر، يقول الله تعالى:

﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون (١٥٢) ﴾ [البقرة]

ويقول سبحانه:

﴿ .. واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار (٤١) ﴾ [آل عمران]

وقال أيضاً جلّ وعلا:

﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت]

هذه نصوص من القرآن الكريم تبين لنا كمال الذات وجلال الصفات لنحيا في جلال الإيمان السخيّ والإخلاص النقي، فقد ورد عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة غير واحد، من أحصاها دخل الجنة».

ولقد أمرنا الحق جلَّ علاه أن نؤمن بها ذاتاً وصفات، وأن نعبده طاعة واجتناباً لمعاصيه، فهو العالم بالسر وأخفى، وفى أسمائه أسرار، وفى صفاته مدد، يكشفه الله لمن تعامل مع صفاته وأسمائه.

فمن عدله ورحمته أن أمرنا بما نستطيع، وإن كنا لم نره، ولكن بالإدراك فى خلقه، والانفعال بقدرته يجعلنا نتيقن وجوده، فتوحده ونُفرده ونتجرد له، ففى آياته الكونية والنفسية ما يدل دلالة على عطاء الصفات فى حركة النظام الكونى وحركة الحياة نحو الحياة.

وإن كنا لم نره جهرة فإنه قد كشف لنا عن صفاته من خلال أسمائه الحسنى حتى تكون العبادة بحب وشعور بفضل.

فمن أحصى الأسماء الحسنى مع إدراك معانيها، والتخلق بأخلاقها تجعل الإنسان المؤمن يعيش فى الدنيا برضاه، وفى الآخرة الجنة مثواه، وهذه هى الأسماء الحسنى:

اللـــــه: هو الاسم الدال على الذات الجامعة لصفات الألوهية.

الرحمن: واسع الرحمة فى خلقه، مؤمنهم وكافرهم، فى معاشهم ومعادهم.

الرحيم: المعطى من الثواب أضعاف العمل.

المــلـك: المتصرف فى مُلْكه كما يشاء.

القدوس: المُنَزَّه عن كل وصف يدركه حسٌّ أو خيال.

الســلام: السالم من العيوب والنقائص، الناشر سلامته على خلقه.

المـؤمن: المصدق نفسه وكتبه ورسله فيما يقولونه عنه.

المهيمن : المسيطر على كل شيء بكمال قدرته.

العزيز : الغالب الذى لا نظير له.

الجبار : المنفذ مشيئته على سبيل الإجبار والجبر.

المتكبر : المتفرد بصفات العظمة والكبرياء، المتكبر عن النقص والحاجة.

الخالق : المبدع لخلقه بإرادته.

البارىء : المميز لخلقه بالصور المختلفة.

المصور : الذى أعطى لكل خَلْق صورة خاصة.

الغفار : الذى يستر القبيح فى الدنيا ويتجاوز عنه فى الآخرة.

القهار : الذى يقهر الجبابرة.

الوهاب : المتفضل بالعطايا.

الرزاق : خالق الأرزاق، والمتكفل بإيصالها إلى خلقه.

الفتاح : الذى يفتح خزائن رحمته لعباده.

العليم : المحيط علمه بكل شيء.

القابض : قابض يده عمّن يشاء من عباده حسب إرادته.

الباسط : بأسراره على مَنْ يشاء.

الخافض : الذى يخفض الكفار والأشقياء.

الرافع : للأقدار بين أولياء الرجال.

المعز : للمؤمنين بطاعته.

المذل : للكافرين بعصيانهم.

السميع : الذى لا يغيب عنه مسموع.

البصير : الذى يشاهد جميع الموجودات .

الحكم : الذى إليه تُرجع الأمور والأحكام .

العدل : الذى ليس فى مُلكه خلل .

اللطيف : البَرُّ بعباده .

الخبير : العالم بكل شىء ، ظاهر وباطن .

الحليم : الذى لا يعجل بالانتقام .

العظيم : الذى لا تصل العقول إلى كُنْه ذاته .

الغفور : غافر الذنب وقابل التَّوْب .

الشكور : المُنعم على عباده بالثواب .

العلى : الذى علا بذاته وصفاته عن مدارج الخلق .

الكبير : المُنزَّه عن الأوهام .

الحفيظ : حافظ الكون من الخلل .

المقيت : خالق الأقوات ومُقسِّمها .

الحسيب : الذى يكفى عباده حاجتهم .

الجليل : عظيم القدر بجلاله وكماله .

الكريم : عطاؤه لاينفد .

الرقيب : الملاحظ لما يرعاه .

المجيب : الذى يجيب الداعى إذا دعاه .

الواسع : الذى وسع كرسيه السموات والأرض .

الحكيم : المُنزَّه عن فعل ما لا ينبغى بجلاله وكماله .

الودود: المتحبِّب إلى خَلْقه.

المجيد: الشريف في ذاته وأفعاله، الجزيل عطاؤه ونواله.

الباعث: باعث الموتى للحساب.

الشهيد: العالم بالأمور الظاهرة والباطنة.

الحق: خالق كل شيء بحكمة.

الوكيل: الموكول إليه الأمور والمصالح.

القوى: الذى لا يُعجزه شيء.

المتين: الذى لا يُغلب.

الولى: المحب لأوليائه، الناصر لهم، والموالى لهم.

الحميد: المستحق للحمد والثناء.

المحصى: الذى لا يفوته دقيق الأمور، ولا يعجزه دليلها.

المبدىء: الذى بدأ الخلق، وأوجده من العدم.

المعيد: الذى يعيد الخلق إلى الموت.

المحيى: الذى يُحيى العظام وهى رميم.

المميت: الذى يميت الأجسام بنزع الأرواح منها.

الحى: المتصف بالحياة الأبدية.

القيوم: القائم على كل شيء.

الواجد: الذى يجد كل ما يطلبه ويريده.

الماجد: كبير الإحسان والأفضال.

الواحد: المتفرد ذاتاً ووصفاً وأفعالاً.

الصمد: المقصود بالحوائج.

القادر: المتفرد باختراع الموجودات.

المقتدر: الذي يقدر على ما يشاء.

المقدم: مقدم الأنبياء والأولياء ومَنْ يشاء.

المؤخر: مؤخر الأعداء بالإبعاد.

الأول: السابق للأشياء.

الآخر: الباقي بعد فناء خَلْقه.

الظاهر: بآياته وعلامات قدرته.

الباطن: المحتجب عن الأنظار، المطلع على الأسرار.

الوالى: المالك للأشياء، والمتصرف فيها كيف يشاء، والمنعم بالعطاء، والدافع للبلاء.

المتعال: رفيع الدرجات ذو العرش، المرتفع في كبريائه وعظمته.

البر: الذي يمنُّ على السائلين بحُسْن العطاء.

التواب: يقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات.

المنتقم: الذي تخشى نقمته لقدرته وعظمته، وهو الذي نرجو منه الرحمة خوفاً وطمعاً.

العفو: الذي يمحو الذنوب ويتجاوز عن السيئات.

الرؤوف: شديد الرحمة بعباده.

مالك الملك: له التصرف المطلق ومالك الملك الذي ينفذ مشيئته في مُلْكه كيف يشاء وكما يشاء لا مردَّ لقضائه، ولا مُعقِّب لحكمه.

ذو الجلال والإكرام: الذى لا جلال ولا كمال ولا شرف إلا هو له، فالجلال فى ذاته، والكرامة على خلْقه.

المقسط: القائم بالقسط والمقيم للعدل.

الجامع: الذى جمع الكمالات كلها ذاتاً ووصفاً وفعلاً.

الغنى: الذى لا يحتاج إلى شىء فى ذاته، ولا فى صفاته، ولا فى أفعاله.

المغنى: المعطى لمَنْ يشاء من عباده.

المانع: الذى يمنع البلاء حفظاً وعناية، ويمنع العطاء عمَّنْ يشاء ابتلاءً أو حماية.

الضار: يصيب مَنْ يشاء من عباده، فهو مالك الضر.

النافع: هو مالك النفع، وهو على كل شىء قدير.

النور: الذى نوَّر قلوب الصادقين بتوحيده.

الهادى: الذى أعطى كل شىء خلْقه ثم هدى.

البديع: الخالق البديع فى ذاته.

الباقى: الدائم الوجود الموصوف بالبقاء، بقاء الأبد والأزل.

الوارث: مَنْ له ما فى السموات وما فى الأرض، ربّ كل شىء ووارثه ورازقه وراحمه.

الرشيد: المرشد لأهل الطاعة.

الصبور: الذى يُمْلى ويمهل، وينتظر ولا يعجل، ولا يعاجل ولا يسارع، على الفعل قبل أوانه، وينزل الأمر بقدر معلوم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة».

كما جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي أن النبي ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر».

هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن.. الرحيم.. الملك.. القدوس.. السلام.. المؤمن.. المهيمن.. العزيز.. الجبار.. المتكبر.. الخالق.. البارىء.. المصور.. الغفار.. القهار.. الوهاب.. الرزاق.. الفتاح.. العليم.. القابض.. الباسط.. الخافض.. الرافع.. المعز.. المذل.. السميع.. البصير.. الحكم.. العدل.. اللطيف.. الخبير.. الحليم.. العظيم.. الغفور.. الشكور.. العلي.. الكبير.. الحفيظ.. المقيت.. الحسيب.. الجليل.. الكريم.. الرقيب.. المجيب.. الواسع.. الحكيم.. الودود.. المجيد.. الباعث.. الشهيد.. الحق.. الوكيل.. القوي.. المتين.. الولي.. الحميد.. المحصي.. المبدىء.. المعيد.. المحيي.. المميت.. الحي.. القيوم.. الواجد.. الماجد.. الواحد.. الصمد.. القادر.. المقتدر.. المقدم.. المؤخر.. الأول.. الآخر.. الظاهر.. الباطن.. الوالي.. المتعال.. البر.. التواب.. المنتقم.. العفو.. الرءوف.. مالك الملك.. ذو الجلال والإكرام.. المقسط.. الجامع.. الغني.. المغني.. المانع.. الضار.. النافع.. النور.. الهادي.. البديع.. الباقي.. الوارث.. الرشيد.. الصبور.

دعاء

كما روى عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحداً قط همٌ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك.. اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك، سمَّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همِّي، إلا أذهب الله حزنه وهمَّه، وأبدل مكانه فرحاً».

كان الله سبحانه وتعالى ولم يكن معه شيء، ثم خلق الخلق وأطلق على كل مخلوق اسماً يدل عليه.. بحيث إذا أطلق الاسم تبادر إلى الذهن صورة المسمّى.

فحين أقول لك: شمس.. يرد إلى ذهنك صورة القرص الذى يشرق كل صباح ليملأ الأرض نوراً ودفئاً.. وهكذا.. السماء.. الأرض.. الجبال.. الكواكب.. النجوم.. الشجر..

كلها أسماء تدل على مُسمّى بعينه.

وقد علّم الحق سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها..

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وعلّم آدم الأسماء كُلّها ثُمّ عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين (٣١) ﴾ [البقرة]

وكلمة ﴿ كُلّها ﴾ تفيد الإحاطة والشمول.

وهنا سؤال يطرح نفسه: هل تعلّم آدم أسماء الله الحسنى من بين ما علمه الله من الأسماء؟

إن الآية واضحة وصريحة فى أن الله سبحانه وتعالى قد علّم آدم الأسماء كلها.. ولا شك أن أسماء الله الحسنى من بين هذه الأسماء، باستثناء تلك التى استأثر بها - سبحانه - فى علم الغيب عنده كما نص الحديث الشريف.

لكن ما المقصود بأسماء الله الحسنى؟

لكي نحدد المقصود بالأسماء الحسنى للحق عز وجل يجب أن نعرف ما هو الاسم أولاً؟

الاسم: نوع من أنواع العَلَم.. والعَلَم في اللغة هو اسم يعيّن مسمّاه -كما ذكرنا- بحيث إذا ذكر الاسم وردت صورة المسمى في الذهن.

وينقسم العلم إلى ثلاثة أقسام: «اسم، ولقب، وكنية».

والاسم: هو ما يوضع على المسمّى أول وضع بحيث إذا ذُكِر الاسم وردت صورة المسمى في الذهن.

هَبْ أنك أنجبت ابناً، وأطلقت عليه اسم (أحمد) مثلاً، فهذا اسم له؛ لأنك قد وضعته عليه أول وضع.

أما اللقب: فهو ما أشعر برفعة أو بضعة وكان وضعاً ثانياً.. فابنك الذي أنجبته وأسميته أحمد قد تشعر مع الأيام أنه يتصف بالغباء فتطلق عليه لفظ (الجهول) أو (جهلان).

ونظراً لأن هذا لفظ يشعر بالضِّعة وقلة الشأن، وقد وضع على المسمى وَضْعاً ثانياً، فهو لقب وليس اسماً، وعبارة "وضع ثانياً" تعني أن هذا الابن له اسم وضع له أول وضع، ثم أطلق عليه اللقب.. وهذا يعني أنك إذا أطلقت عليه "جهول أو جهلان" أول وضع لأصبح اسماً له وليس لقباً رغم ما فيه من إشعار بالضِّعة، وهو ما ينطبق على اللقب لا الاسم.

والكُنية: هي ما صُدِّر بأب أو أم أو أخ أو أخت وكانت وضعاً ثانياً.. فابنك الذي سميته أحمد حينما يكبر وينجب ابناً يسميه "بكراً" فيناديه الناس (أبا بكر) فإن هذه تصبح كنية له.. فكل ما صُدِّر بأب أو أم أو أخ أو أخت يسمى كنية بشرط أن يوضع على المسمى وضعاً ثانياً.. فلو أطلقنا على مولود (أبا بكر) فإن أبا بكر يصبح اسماً له لا كنية؛ لأنه أطلق عليه وضعاً أولاً، لا ثانياً.

فشرط اللقب أو الكنية أن يوضعا على المسمى وضعاً ثانياً، فإذا وُضعا له وضعاً أولاً كان اسماً للمسمَّى.

توضح ما سبق بأمثلة.. رسول الله ﷺ اسمه (محمد).. وكنيته (أبو القاسم)، ولقبه (رسول الله).

الفاروق عمر.. اسمه (عمر) وكنيته (أبو حفص)، ولقبه (الفاروق).

ونرجع إلى أسماء الله الحسنى.. فهل هي ألقاب للحق عز وجل؟.. بالقطع ليست ألقاباً له؛ لأن جميع أسماء الله عز وجل تدل على الرفعة وليس فيها ما يدل على الضعة، لأن الحق سبحانه منزه تنزيهاً مطلقاً لا حدود له، كذلك لا يجوز أن يكون للحق عز وجل كنية؛ لأنه سبحانه وتعالى واحد أحد فرد صمد، وليس بأب أو ابن أو أخ لأحد، فهو سبحانه لم يلد ولم يولد.

إذن: فالأسماء الحسنى للحق عز وجل هي تلك الأسماء التي وضعها للدلالة على ذاته، وهذه الدلالة تنقسم إلى قسمين: دلالة عَلَمية، ودلالة وَصْفية.

والدلالة العلمية تطلق على ذات الحق سبحانه وتعالى ، وهى لفظ الجلالة (الله) .

فالله - إذن - عَلَم على واجب الوجود ، أما سائر الأسماء الحسنى كالرحمن - مثلاً - فهى فى الأصل للوصف .. فنحن نطلق عليها أسماء ، وإن كانت هى فى حقيقتها أوصافاً تدل على بلوغ القمة فى الوصف .

هذه الأسماء بما تحمله من صفات تحمل القيم الإلهية التى تتجمع فى مسيرتها نحو منهج الحياة فى إطار واحد ، لتعتدل موازين الحياة .

فإذا قلنا « الله » وهو لفظ الجلالة المصون اسماً أو لقباً أو كنية ، والمصون جلالاً وكمالاً ، فالأمر له ، والنهى منه ، والأمر والنهى يتحركان من خلال أسماء الله الحسنى .

الله الملك هو المالك لكل شىء ، والمتصرف فى كل شىء ، والقابض على كل شىء ، والمدبر لكل أمر .

هذه القضايا تحتاج إلى ذات الله مع صفاته ، فالملك يحتاج إلى تدبير ، ولا يدبره إلا ملك ، ولا ملك سواه مالك الملك ، والملكية تحتاج إلى تدبير ، والتدبير أمره ، وأمره يحتاج إلى قوة تنفذه ، والقوة فى ذاته سبحانه .

والله هو القيوم على ملكه ، لأنه القائم على كل شىء بحسب احتياج القضية ، فهناك قضية تحتاج إلى الرحمة ، فتتحرك صفة الرحمة .

﴿ ورحمتي وسعت كل شيء .. (١٥٦) ﴾ [الأعراف]

وهناك قضية تحتاج إلى عدل ، فهو العادل .

وقد تحتاج القضية لانتقام ، فهو المنتقم .

وقد تحتاج إلى التسامح والمغفرة ، فهو غافر الذنب وقابل التوب وغفور وغفار .

وهكذا في جميع أسماء الله الحسنى .

والملاحظ أن كل حركة في الكون - وإن قلّت - تتجلى فيها أسماء الله الحسنى ، فالحركة تحتاج إلى تدبير ، والتدبير تدبيره ، وتحتاج إلى قوة ، وهو القوى المتين ، وتحتاج إلى بداية فهو المبدىء ، وتحتاج إلى نهاية وهو المعيد .

بدليل أنك قد تقوم ولا تقعد ، وقد تقعد ولا تقوم ، وقد تنطق ولا تجد نطقاً ، وقد تلبس ثوبك في الصباح ولا تدرى هل تخلعه بيدك أم تخلعه من عليك يد الغاسل ، فالأمر له سبحانه .

وإذا تأملنا دعاء النبي عليه الصلاة والسلام : «اللهم إنى أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همّى» .

نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد أورد بعض أسمائه الحسنى في كتابه ، وبعضها على لسان نبيه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ،

واستأثر ببعضها فى علم الغيب عنده، واختص ببعضها بعضاً من خلقه.

وحصر الأسماء فى تسعة وتسعين اسماً، لا ينفى ما عداها من الزيادة عليها، ولكن التخصيص بالذكر لهذه الأسماء التسعة والتسعين كان لأنها أشهر الأسماء وأظهرها من حيث المعانى.

إذن: فالأسماء الحسنى لله عز وجل هى تلك الأسماء التى وضعها الحق سبحانه وتعالى لنا لانة على ذاته... سواء تلك التى أنزلها فى كتابه أو على لسان نبيه، أو استأثر بها فى علم الغيب عنده، أو علَّمها بعضاً من خلقه.

ولكننا نبادر فنقول: إن ما نبحث عنه هنا هو تلك الأسماء التى وردت فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة دون النظر إلى ما قد يكون هناك من أسماء لله عز وجل يعلمها رسول الله ﷺ وحده دون غيره من البشر عامة والأنبياء خاصة.

فقد ورد فى صحيح البخارى عن أنس أن النبى ﷺ قال: «يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا؟ فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أما ترى الناس، خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شىء، اشفع لنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم، ويذكر لهم خطيئته التى أصاب، ولكن ائتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتون نوحاً فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التى أصاب، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم فيقول: لست هناكم، ويذكر لهم خطاياه التى أصابها، ولكن ائتوا موسى،

عبداً آتاه الله التوراة وكلّمه تكليماً، فيأتون موسى فيقول: لست هناكم، ويذكر لهم خطيئته التي أصاب، ولكن ائتوا عيسى، عبد الله ورسوله وكلمته وروحه، فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمداً ﷺ عبداً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني فأنطلق فأستأذن على ربي فيؤذن لي عليه، فإذا رأيت ربي وقعتُ له ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال لي: ارفع محمد، وقُلْ تُسمع وسَلْ تُعطه واشفع تُشفَّع، فأحمد ربي بمحامد علّمنيها، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أرجع، فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لي: ارفع محمد، وقُلْ تسمع وسَلْ تُعْطه واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أرجعُ، فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل تُسْمع، وسَلْ تُعْطه، واشفع تُشفّع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فأقول: يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود، قال النبي ﷺ: يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه ما يزن من الخير ذرة».

من هذا الحديث الشريف نعلم يقيناً أن الحق سبحانه وتعالى قد اختص رسوله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم بتعليمه محامد لم يُعلّمها أحداً غيره من البشر بمن فيهم سائر الأنبياء.

فماذا يمنع من أن يكون من بين هذه المحامد تلك الأسماء الحسنى التى استأثر بها الحق عز وجل فى علم الغيب عنده؟

هناك أسماء للحق سبحانه وتعالى لها مقابل مثل: المعز، المذل.. القابض، الباسط.. المبدئ، المعيد.. الرافع، الخافض.. المقدم، المؤخر.. الضار، النافع.. المحيي، المميت.

والأسماء التي يكون لها مقابل هي تلك التي يكون فعلها في مخلوقاته، فالحق سبحانه وتعالى يعز من خلقه من يشاء ويذل من يشاء، ويرفع من يشاء ويخفض من يشاء، وهو الذي يُحيي ويميت مخلوقاته وفقاً للآجال التي حددها لهم.

أما الأسماء التي تمثل أوصافاً ذاتية لله عز وجل فهي لا تقبل العكس.. كأن تقول: العزيز.. فهذه صفة للذات الإلهية العلية، ولذا فهي لا تقبل العكس، فتقول: إن من صفاته عز وجل العزيز، بينما ليس من صفاته الذليل، وأن من صفاته الحي، بينما ليس من صفاته الميت، وهكذا في سائر الصفات.

وكما قلنا من قبل: إن أسماء الله الحسنى وإن كنا نطلق عليها أسماء، إلا أنها أوصاف تدل على بلوغ القمة في الوصف. فكل اسم من أسماء الحق عز وجل يمثل صفة من صفاته.

فالرحمن - مثلاً - اسم من أسماء الله يبرز صفة الرحمة لديه، والغنيّ اسم من أسمائه يوضح غناه عمّن سواه في كافة شئونه، وقد يشترك المخلوق مع الخالق في صفة من صفاته.. كأن تقول: إن فلاناً غنيّ، أما إذا وردت الصفة على إطلاقها كأن تقول: (الغنيّ) فإنها لا تطلق إلا على الحق عز وجل.

وينطبق ذلك على جميع الأسماء عدا لفظ الجلالة (الله) ؛ لأنه ليس صفة من صفات الله ، وليس مشتقاً من فعل معين ، وإنما هو علَم على واجب الوجود، أي: علم على الحق تبارك وتعالى بذاته وصفاته التي وصف بها نفسه، فهو يحوى جميع صفات الكمال الواجبة للحق عز وجل.

فالقاعدة - إذن- أن كل اسم من أسماء الله الحسنى يمثل صفة من صفاته عدا لفظ الجلالة... فإنه وإن كان لا يمثل صفة بعينها، إلا أنه يحوى جميع الصفات الأخرى.. فحين تقول: يا الله.. فأنت تدعوه بجميع صفات الكمال الواجبة لذاته عز وجل، والتي وصف بها نفسه.

و«الله» هو أشهر أسمائه - سبحانه وتعالى - وأعلاها محلاً في الذكر والدعاء، وقد صار شعار الإيمان وإمام سائر الأسماء.

وهو اسم ممنوع لم يتسمَّ به أحد، وقد قبض الله عنه الألسنة، فلم يُطلق على أحد سواه... وسبحانه وتعالى يقول:

﴿هل تعلم له سميا (٦٥)﴾ [مريم]

وأسماء الله الحسنى لا تدخل تحت حصر، فهي ليست تسعة وتسعين اسماً فقط - كما يظن البعض - بدليل أن هناك أسماء قد استأثر بها الحق في علم الغيب عنده، لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وأخرى قد اختص بها بعضاً من خلقه.

وقد جاء في الحديث الصحيح : « أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك ، أو أنزلته في كتابك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك » .

الأسماء الحسنى ثلاثة أقسام :

قسم سمَّى به الحق سبحانه نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم ، ولم ينزل به في كتابه .

وقسم أنزل به في كتابه فعرفه عباده .

وقسم استأثر به في علم الغيب ، فلم يطلع عليه أحد من خلقه .

وليس المراد انفراده بالتسمي به ؛ لأن هذا الانفراد ثابت في الأسماء التي أنزل بها كتابه في إشراقات الأسرار للعبد المختار .

ومن قول النبي ﷺ في حديث الشفاعة « فيفتح عليَّ من محامده بما لا أحسنه الآن » .

وتلك المحامد تفي بأسمائه وصفاته ؛ ومنه قول النبي ﷺ « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، من أحصاها دخل الجنة » فالكلام جملة واحدة ، وقوله « من أحصاها دخل الجنة » صفة لا خبر ، والمعنى له أسماء متعددة .

وهذا لا ينفى أن يكون له أسماء غيرها كما تقول : لفلان مائة فرس قد أعدها للجهاد ، فلا يمنع أن يكون له أفراسٌ سواها مُعَدّة لغير الجهاد ، إذ إن هناك فى أسماء الله الحسنى إمدادات وإشراقات وأسراراً تفوح عطراً من ثنايا المعدودات من الأسماء ، وتعطى سراً من المعلومات من الصفات التى استأثر بها الحق عز وجل فى علم الغيب عنده .

ويتجلى ذلك فى كمال الدين ، وتمام النعمة ، والرضا بالإسلام ديناً ، فنجاح محمد ﷺ فى تطبيق المنهج كاملاً لدليل واضح أن الله اختصه بأسرار تؤنسه فى مسيرة الدعوة ومصيرها ، وقد تكون هذه الأسرار هى من أسرار أسماء الله الحسنى .

وهنا يتزايد التساؤل.. هل الأسماء الحسنى لله عز وجل فى مجموعها - التى نعلمها والتى لا نعلمها - محصورة بعدد معين.. أم هى لا نهائية؟

لقد قيل الكثير فى هذا الموضوع، ولكن الصواب أنها مسألة فى علم الله عز وجل وحده.. والسبب فى ذلك هو أن الأسماء التى اختص الله بها بعضاً من عباده، والأسماء التى استأثر بها فى علم الغيب عنده.. لا نعلم إذا كانت محصورة أم لا نهائية.. وإذا كانت محصورة بعدد معين فنحن لا نعلم عددها.

فالقاعدة إذن أن أسماء الله الحسنى أكثر من تسعة وتسعين اسماً، أما كونها محصورة بعدد معين معلوم أو مجهول أو لا نهائية.. فالعلم عند الله وحده، عزّ علمه على أن يحيط به سواه.

يقول الحق جل وعلا:

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين (١٢٢) ﴾ [البقرة]

﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين (١٥٥) ﴾ [البقرة]

﴿ ..ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين (٣٠) ﴾ [الأنفال]

﴿ ..فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم (٤) ﴾ [إبراهيم]

والملاحظ أن الآيات السابقة قد احتوت على أفعال للحق عز وجل: «أنعمت»، و«لنبلونكم»، و«ويمكر الله»، و«يضل من يشاء».

ومن المعلوم أنه يصح لغوياً اشتقاق أسماء من الأفعال فنقول: إن «منعم» اسم مشتق من أنعم، و«مبتل» من ابتلى، و«ماكر» من مكر، و«مضل» من أضل.

هذا من حيث اللغة.. أما فيما يتعلق بأسماء الله الحسنى، فالقاعدة أنه لا يجوز أن نشتق من أفعال الله عز وجل أسماء له، وبذلك لا يكون من أسمائه عز وجل «المنعم أو المضل أو المبتلي أو الماكر» اشتقاقاً من أفعال الحق تبارك وتعالى.

والسبب في ذلك هو أن هذه الأفعال لا تعطى بذاتها، وهي منفصلة عن الجمل التي وردت فيها أوصافاً لله عز وجل يصح أن تُطلق عليه على وجه التعميم والشمول.

ففي الآية الأولى نجد أن إنعام الله عز وجل كان على بني إسرائيل، كما أن إنعام الله عز وجل يكون من نصيب أوليائه الصالحين الطائعين.. فهو تبارك وتعالى يرزق الجميع، ولكنه ينعم على خاصته.

وكذلك لا يصح أن يكون المبتلى من أسمائه عز وجل؛ لأن هذا الوصف لا يمكن تخيله بعد قيام الساعة، فالاختبار والابتلاء محله الدنيا، وينتهي بنهاية الحياة على الأرض، وبذلك لا يكون المبتلى وصفاً دائماً من أوصاف الله عز وجل، وإن كان فعلاً من أفعاله في وقت من الأوقات.

وأيضاً الماكر فعل من أفعال الله، ولكنه في مواجهة الماكرين من عباده.

والإضلال يكون لمن استفحل في ضلاله، ولا سبيل لتوبته ورجوعه، فيضله الله عز وجل بأن يتركه على ضلاله حتى يحق عليه جزاء فعله.

ومثل ذلك قولنا: (شديد العقاب - قابل التوب - غافر الذنب) هي أوصاف لله عز وجل، ولكن لا يصح أن نستنتج منها أسماء لله عز وجل فنقول: إن من أسمائه عز وجل (الشديد أو القابل أو الغافر)، وذلك لنفس العلة التي ذكرناها في عدم جواز الاشتقاق من الأفعال.

من صفات الحق عز وجل أنه أزلي، أي: ليس له بداية ؛ لأن الله سبحانه الأول قبل كل شيء، والباقي بعد فناء كل شيء، بلا نهاية.

كل مخلوق من مخلوقاته له تاريخ ميلاد، وتاريخ ميلاده هو تلك اللحظة التي أوجده الله فيها؛ ولأن الله سبحانه وتعالى ليس له بداية فإنه عز وجل ليس له خالق؛ لأنه لم يسبقه أحد في الوجود حتى يكون خالقاً له.

وصفات الحق عز وجل التي وصف بها نفسه هي صفات أزلية.. أي: قديمة قدم الله عز وجل، والسبب في ذلك هو أن هذه الصفات لصيقة بالذات الإلهية، والذات الإلهية قديمة.. أي: ليس لها بداية.

إن من صفات الحق عز وجل أنه خالق، فإن هذه الصفة قديمة له وليس لها بداية، فهو خالق قبل أن يخلق مخلوقاته، ولو لم تكن هذه الصفة أزلية له لما استطاع أن يخلق الخلق.

وصفات الله عز وجل مطلقة في ذاته ونسبية في خلقه، فحين أقول لك: إن فلاناً عالم، فإنك سوف تسأل: وفي أي فرع من العلوم؟ فأقول لك: إنه عالم في الطب، فتسأل: وفي أي فرع من فروع الطب؟ فأقول لك: في الجراحة، وقد تسأل: وما قدر إجادته لهذا التخصص؟..

هذا بالنسبة إلى علم المخلوق، أما علم الخالق - عز وجل - فهو علم قديم.. علم بما كان وبما هو كائن وبما سيكون، ولا يستجد في علم الله ما لم يكن يعلم به، وعلمه مطلق.

فعلم الله ليس كعلم الناس ، وعلم الخالق ليس كعلم المخلوق ، فعلم المخلوق له حد ، وعلم الله بلا حد .

وقد أكد الحق تبارك وتعالى طلاقة علمه بالعديد من الآيات القرآنية مستخدماً مشتقات مختلفة .. منها الفعل الماضي «علم» ، وذلك كما في قوله تعالى :

﴿ ..فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا (١٨) ﴾ [الفتح]

﴿ .. فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا (٢٧) ﴾ [الفتح]

﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ..(٢٣) ﴾ [الأنفال]

﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ..(٦٦) ﴾ [الأنفال]

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ..(١٦) ﴾ [ق]

﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون (١٩) ﴾ [النحل]

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ..(٨) ﴾ [الرعد]

﴿ ويعلم مستقرها ومستودعها ..(٦) ﴾ [هود]

﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ..(٧) ﴾ [آل عمران]

﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

﴿ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء .. (٤٢) ﴾ [العنكبوت]

ومستخدماً الفعل الماضي (علّم) ، كما في قوله تعالى:

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها .. (٣١) ﴾ [البقرة]

﴿ وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل .. (١١٠) ﴾ [المائدة]

﴿ .. فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون (٢٣٩) ﴾ [البقرة]

﴿ .. وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٦٨) ﴾ [يوسف]

﴿ وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء .. (٢٥١) ﴾ [البقرة]

ومستخدماً الاسم المشتق «عالم»، كما في قوله تعالى:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩)﴾ [الرعد]

ومستخدماً صيغة التفضيل «أعلم» على وزن أفعل، كما في قوله تعالى:

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ..(٢٥)﴾ [الإسراء]

ومستخدماً صيغة المبالغة «عليم»، مثل قوله تعالى:

﴿..وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)﴾ [البقرة]

أنت أيها الإنسان قد تنسى أشياء مما تعلم، أما هو - سبحانه وتعالى - فمنزَّه عن النسيان، وقد تلتبس عليك الأمور إذا زادت عن قدرة الحفظ لديك، أما الحق سبحانه وتعالى ورغم علمه اللا محدود فهو منزَّه عن هذا اللَّبس والخلط بين ما يعلمه من الأمور.

والله سبحانه وتعالى هو وحده (عالم الغيب والشهادة)، وقد يتعجب بعض الناس.. لماذا جاءت كلمة الشهادة هنا.. والمقصود بها العالم المشهود؟

نقول: إنها جاءت حتى لا يعتقد أحد أن الله سبحانه وتعالى - لأنه غيب عنا - يعلم الغيب فقط.. وأنه جل جلاله يغيب عن علمه ذلك العالم المشهود الذي نعيش فيه.. فجمع الله بين العالمين.. عالم الغيب وعالم الشهادة، ليغلق باب التأويل والاجتهاد.. فالله سبحانه

وتعالى عنده علم الغيب .. وعنده علم المشهود الذى يحدث فى الدنيا .. وبهذا لا يغيب عن علمه شىء، لا فى الأرض ولا فى السماء.

إن معنى (عالم الغيب) .. أن الحق سبحانه وتعالى يعلم كل ما هو غيب عنا - وكما قلنا - نحن نعلم القليل .. والقليل جداً مما فى الكون .. ولا نعلم إلا قدر ما كشف الله لنا.

وكلمة «عالم الغيب» تقتضى علماً مطلقاً لله سبحانه وتعالى .. فكل ما هو غائب عنا يعلمه الله تبارك وتعالى .. الكون غيب عنا، ولكن الله يعلمه .. وعالم الجن غيب عنا ولكن الله يعلمه، وعالم الملائكة غيب عنا .. ولكن الله يعلمه .. وما ينزل إلى الأرض، وما يصعد إلى السماء كلاهما غيب عنا ولكن الله جل جلاله يعلمه، وعالم البرزخ غيب عنا، وكذلك يوم القيامة، والحساب والآخرة .. والجنة والنار .. كل هذا غيب عنا. ولكن الله تبارك وتعالى يعلمه.

إن ما سيحدث بعد يوم القيامة غيب عنا ولكن الله يعلمه .. وما يقع فى باطن الأرض غيب عنا ولكن الحق عز وجل يعلمه .. الثمرة التى ستنبت بعد ألف سنة غيب عنا ولكن الله يعلمه .. الإنسان الذى سيولد قبل القيامة بساعات غيب عنا ولكن الله يعلمه .. والورقة التى ستسقط بعد مئات أو ألوف السنين غيب عنا ولكن الله يعلمه .. وأحداث الدنيا كلها التى ستقع غيب عنا ولكن الله يعلمها.

إنه إذن العلم المطلق .. العلم اللامحدود .. اللانهائى .. علم بما كان وبما هو كائن وبما سيكون.

الكمال في ذاته وصفاته وأفعاله، والجلال له وبه وعليه، يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين (٥٩) ﴾ [الأنعام]

كما يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿ عالم الغيب والشهادة ..(٧٣) ﴾ [الأنعام]

وعلم الغيب يقتضي العلم المطلق، فكل ما غاب عنا يعلمه الكون غيب لا يعلمه إلا هو، وعالم الجن غيب لا يعلمه إلا هو، وعالم الملائكة غيب لا يعلمه إلا هو، وأسرار العطاء للعالم البشري غيب لا يعلمها إلا الله.

ويعلمها المخلوق بإذن ميلادها. يقول الحق:

﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت .. (٣٤) ﴾ [لقمان]

إذن العالم المطلق العلم اللامحدود هو علم بما كان، وبما هو كائن، وبما سيكون، وهكذا جميع الصفات فيها الكمال كله، فأنت قادر بقدرة محدودة بقدر ما آتاك الله عز وجل من هذه الصفة، أما قدرته فلا نهائية وبغير حد، وأنت قدرتك محددة بحدود الأسباب.

يقول الله :

﴿ لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور (٤٩) أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير (٥٠) ﴾ [الشورى]

الأصل في الإيجاد الذكر والأنثى ، ولكن الله سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته خلق آدم بغير أب وأم ، وخلق حواء من غير أم ، وخلق عيسى من غير أب ، وخلق محمداً بأب وأم .

إذن : فطلاقته تعمل بالأسباب وغيرها ، فأنت إذا استشعرت الكمال عشت في جلاله ، وعيشة الجلال وصال ، ومن طلاقة قدرته من ظواهر الكون أن المطر مثلاً تجده في مناطق ممطرة ومناطق لا ينزل فيها مطر ، ثم تجد مناطق المطر لا تنزل فيها قطرة ماء وتصاب بالجدب ، بينما هذه المناطق ينزل فيها المطر بغزارة ، ثم تجد منابع النيل التي هي مناطق غزيرة بالمطر قد تُصاب بالجدب في بعض السنوات ، ولو أن هذا المطر ينزل بالأسباب وحدها ما حصل جدب .

إذن : يلفتنا الله إلى أن الماء الذي ينزل من السماء ليس خاضعاً للأسباب ، ولكنه محكوم بقدرة القادر .

وإذا انتقلنا من الكون إلى عالم الحيوان لرأينا عجباً ، فهذا صبي يقود جملاً ويسوق حصاناً ، وهذا رجل يروض أسداً ، يقول الحق :

﴿ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون (٧٢) ﴾ [يس]

ولو انتقلنا إلى عالم الزرع نجد قدرة الله تتجلى فيه ، فالإنسان يزرع ، والله يعطيه الأسباب ، ثم تأتى آفة لا يعرف أحد عنها شيئاً فتقضى على هذا الزرع ، يقول الحق :

﴿ وأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا .. (٤٢) ﴾ [الكهف]

ولو عشنا مع الجماد نجد أن من طبيعة الأرض ثبات قشرتها بدوام الحياة عليها ، وفى بعض الأحيان تتحول هذه القشرة الثابتة إلى البراكين ، وتحدث الزلازل المدمرة ، ويتقدم العلم ويكشف الله من علمه ما يشاء ، ولكن يبقى الإنسان عاجزاً عن أن يتنبأ بالزلازل .

يقول الله وهو أصدق القائلين :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ .. (٩٩) ﴾ [الإسراء]

إلى غير ذلك من الآيات التى تبين طلاقة القدرة ، والإيمان بطلاقة القدرة هو اليقين بعينه ، وحق اليقين توحيده وتقديره ، لأنه ربنا الموجود الذى تبين فى خلقه بالثبات والدقة التى لا تتأثر بالزمن ، ولا تتعين بالأسباب ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، ليس كمثله شيء ، وله صفات اختص الله بها دون سواه ، فصفة الخلق من العدم المطلق ، وصفة الإحياء والإماتة والأزلية .

وهناك صفات فيها اشتراك بين الخالق والمخلوق ، ولكنها في المخلوق موقوتة بحد ، أما صفات الله فهي مطلقة بغير حد ، ليس كمثله شيء ، والله قادر وقدرته في كمال بغير حدٍّ ولا قيد ولا سبب ولا قانون .

أما قدرة المخلوق في حدود إمكانياتك وفي حدود زمنك ، ولكي تعيش مع كمال الأسماء لا بد أن تدرك ثم تتفعل ثم تُميز وتختار ولا تختار إلا القوى القادر .

يقول الحق :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) ﴾ [آل عمران]

ففى التأمل فكر ، وفى الفكر ذكر ، وبقدر ذكرك لله تعيش فى نوره ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠) ﴾ [النور]

فيقول الحق :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى

نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم (٣٥)﴾ [النور]

فنور الله خصصه الله لأهل الفكر والذكر، يقول الحق:

﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال (٣٦) رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار (٣٧) ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب (٣٨)﴾ [النور]

وقد سبق أن قلت: إن أسماء الله الحسنى تتجلى في الغيب، والمشهود. تتجلى في الحركة، فالحركة من خلال علم بتدبير، ومن خلال قدرة بتدبير.

وهذه الحركة تتجمع فيها صفات الكمال وصفات الجلال. ولكي نعيش في معية الله سبحانه وأسمائه الحسنى لا بد أن نشاهد فنشهد ونحب، فإذا أحببنا وحدنا، وإذا وحدنا فردنا، وإذا فردنا تجردنا له وبه. ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين (١٦٢)﴾ [الأنعام]

طلاقة قدرة الله متحققة في جميع ظواهر الكون .. فلو أخذنا المطر مثلاً، نجد أن الله سبحانه وتعالى بأسباب كونه جعل مناطق ممطرة في الكون، ومناطق لا ينزل فيها مطر، وقد كشف الله للعلماء من علمه ما جعلهم يضعون خريطة للأسباب تحدد المناطق الممطرة وغير الممطرة.

ثم يأتي الله سبحانه وتعالى في لفتة إلى طلاقة قدرته .. فتجد المناطق الممطرة لا تنزل فيها قطرة ماء وتصاب بالجدب، ويهلك الزرع والحيوان، وقد يموت الإنسان عطشاً .. بينما هذه المناطق كان ينزل فيها المطر بغزارة، وربما سار في أنهار ليروى غيرها من البلاد التي لا ينزل فيها مطر.

فتجد مثلاً منابع النيل التي هي مناطق غزيرة المطر تأتي فيها سنوات جدب فلا يجد الناس الماء، ولا يحدث هذا بشكل مستمر بل في سنوات متباعدة.

لو أن هذا المطر ينزل بالأسباب وحدها ما وقع هذا الجدب في المناطق غزيرة الأمطار .. ولكن الله يريد أن يلفتنا إلى طلاقة قدرته، وإلى أن الماء الذي ينزل من السماء ليس خاضعاً للأسباب وحدها .. ولكن الذي يحكمه هو طلاقة قدرة الله، حتى لا نعتقد أننا أخذنا الدنيا وملكناها بالأسباب، ولكي نعرف أن هناك طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى، وهي التي تعطي وتمنع .. وأنه - جل جلاله - فوق الأسباب، وهو سبحانه المسبب يغير ويبدل كما يشاء.

فإذا جئنا إلى الزرع ذلك الذى فيه عمل الإنسان، نجد مظاهر طلاقة القدرة.. فالإنسان يزرع الزرع والله يعطيه كل الأسباب.. الماء موجود والكيماويات متوافرة.. والأرض جيدة.. ثم بعد ذلك تأتى آفة لا يعرف أحد عنها شيئاً، ولا يحسب لها حساباً، فتقضى على هذا الزرع تماماً.

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) ﴾ [الكهف]

ونحن نعرف أن الآفات تصيب كل مكان فى الأرض لا يعلو عليها علم مهما بلغ.. وهكذا حتى نعرف أن الأرض لا تعطينا الثمر بالأسباب وحدها.. ولكن بقدرة الله سبحانه وتعالى التى هى فوق الأسباب.. فلا نعبد الأسباب وننسى المسبب.. كمن عبدوا البقر والنار وغيرهما من المعبودات.

فإذا انتقلنا إلى الحيوان نجد طلاقة القدرة واضحة.. فهناك من الحيوان ما تزيد قوته على قوة الإنسان مرات ومرات.. ولكن الله سبحانه وتعالى قد أخضعه وذلله للإنسان.

إننا نجد الصبى الصغير يقود الجمل أو الحصان ويضربه، والجمل يستطيع بضربة قدم واحدة أن يقضى على هذا الطفل ولكنه لا يفعل ويمضى ذليلاً مطيعاً، ولا يرد على الإيذاء رغم قدرته على ذلك، ونجد الكلب مثلاً يحرس صاحبه - يدافع عنه لأن الله ذلله له - فإذا

جئنا إلى الذئب أو الثعلب من فصيلة الكلب نجده يفترس الإنسان ويقتله.

ولو أن هذا التذليل للحيوان بقدرة الإنسان لاستطاع كما ذلل الجمل والبقرة والكلب أن يذلل الذئب والثعلب وغيرهما من الحيوانات.. ولكن الله يريد أن يلفتنا إلى أن هذا التذليل بقدرته سبحانه وتعالى، وهذه علامة من علامات طلاقة القدرة في الكون.. ليلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن كل شيء بقدرته ومنّه، وليس بالأسباب، وليس بقدرة الإنسان.

ثم نأتي إلى الجماد.. الأرض من طبيعتها ثبات قشرتها حتى يستطيع الناس أن يعيشوا عليها، ويبنوا مساكنهم، ويمارسوا حياتهم.. ولو أن قشرة الأرض لم تكن ثابتة لاستحالت الحياة عليها، ولاستحالت عمارتها.

إن الله سبحانه وتعالى يريد منا عمارة الأرض.. ولذلك جعل قشرتها ثابتة صلبة.. ولكن في بعض الأحيان تتحول هذه القشرة الثابتة إلى عدم الثبات.. فتتفجر البراكين ملقية بالحمم.. وتحدث الزلازل التي تدمر كل ما على المكان الذي تقع فيه.

ويتقدم العلم، ويكشف الله من علمه لخلقه ما يشاء.. ولكن يبقى الإنسان عاجزاً عن أن يتنبأ بالزلازل.. فيأتي الزلزال في أكثر بلاد الدنيا تقدماً ليفاجئ أهلها دون أن يشعروا بقرب وقوعه.

بل إنه من طلاقة قدرة الله عز وجل أنه أعطى بعض الحيوانات التي ليس لها عقول تفكر ولا علم ولا حضارة.. أعطاها غريزة الإحساس

بقرب وقوع الزلزال .. ولذلك فهي تسارع بمغادرة المكان، أو يحدث لها هياج إن كانت محبوسة في أقفاص أو حظائر مغلقة .. وذلك ليلفتنا سبحانه وتعالى إلى أن العلم يأتي منه، ولا يحصل عليه الإنسان بقدرته .. فيعطي من لا قدرة له على الفكر والكشف العلمي ما لا يعطيه لذلك الذي ميزه بالعقل والعلم.

لماذا؟ .. لنعلم أن كل شيء من الله فلا نعبد قدراتنا .. ولا نقول: انتهى عصر الدين والإيمان وبدأ عصر العلم .. بل لنلتفت إلى أن الله يعطي لمن هم دوننا في الخلق علماً لا نصل نحن إليه .. فنعرف أن كل شيء بقدرته وحده سبحانه وتعالى، وقد أكد الحق سبحانه وتعالى طلاقة قدرته بالعديد من الآيات القرآنية بمشتقات متعددة منها «القادر» كما في قوله تعالى:

﴿ .. قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) ﴾ [الأنعام]

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) ﴾ [الأنعام]

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ .. (٩٩) ﴾ [الإسراء]

﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ..(٣٣)﴾ [الأحقاف]

﴿ إنه على رجعه لقادر (٨) ﴾ [الطارق]

﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون (١٨) ﴾ [المؤمنون]

﴿ وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون (٩٥) ﴾ [المؤمنون]

﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون (٤٠) ﴾ [المعارج]

﴿ فقدرنا فنعم القادرون (٢٣) ﴾ [المرسلات]

﴿ بلى قادرين على أن نسوى بنانه (٤) ﴾ [القيامة]

﴿ .. ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير (٢٠) ﴾ [البقرة]

﴿ .. أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شىء قدير (١٤٨) ﴾ [البقرة]

﴿ .. يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير (١٧) ﴾ [المائدة]

﴿ .. ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير (٣٩) ﴾ [التوبة]

﴿ .. وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير (٦) ﴾ [الحج]

﴿ .. يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير (١) ﴾ [فاطر]

﴿ .. وهو على جمعهم إذا يشاء قدير (٢٩) ﴾ [الشورى]

ولقد لفتت مريم زكريا عليهما السلام إلى طلاقة القدرة الإلهية حينما سألها:

﴿ قال يا مريم أنى لك هذا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

فأجابته مريم:

﴿ .. قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب (٣٧) ﴾ [آل عمران]

حينئذ دعا زكريا ربه في قضية لا تنفع فيها إلا طلاقة القدرة، فهو رجل عجوز وامرأته عجوز وعاقر ويريد ولداً.

هذه رغبة ضد قوانين الكون؛ لأن الإنجاب يتوقف بعد عمر معين للزوجين، فما بالك إذا كانت الزوجة عاقراً، لم تنجب وهي شابة وزوجها شاب، فكيف تنجب وهي عجوز وزوجها عجوز؟

هذه مسألة ضد القوانين التى تحكم البشر، ولكن الله وحده القادر على أن يأتى بالقانون وضده.. وتحققت مشيئة الله عز وجل ورزق زكريا بابنه يحيى.

جميع المعجزات التى أيّد الله بها أنبياءه كانت خارقة لنواميس الكون، فمعجزة شق البحر بعصا موسى عليه السلام كانت خرقاً للخصائص والقوانين التى تحكم (الماء).. فمن خصائص الماء وهو فى الحالة السائلة أن يتشكل وفقاً للحيز الذى يوجد فيه، فيأخذ شكل الكوب ويأخذ شكل المجرى الذى يجرى فيه.. أما أن يقف ويثبت الماء على شكل جبل وهو فى حالته السائلة ودون أن يلتصق به حاجز يمنع انزلاقه.. فهذا لا يحدث إلا بخرق لخصائص الماء وهو فى حالته السائلة.

وحين يحدث فهى إذن القدرة الإلهية التى تتحدى وتكسر أى قانون.

ومعجزة العصا وتحوُّلها إلى ثعبان كانت خرقاً للخصائص والقوانين التى تحكم الجماد.

ومعجزة امتناع النار بإذن خالقها عن حرق أبى الأنبياء إبراهيم - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم - كانت خرقاً لخاصية النار فى الإحراق.

وهكذا جميع المعجزات تمثل خرقاً للنواميس الكونية.

إذن: كل شيء في هذا الكون باسم الله .. يتم باسم الله وبإذن الله، الكون تحكمه الأسباب نعم.. ولكن إرادة الله فوق الأسباب؛ لأنه خالق الأسباب، والخالق هو الحاكم على المخلوق بنواميسه.. ولا يصح أن يحكم بنواميس مخلوقاته.

ومظاهر قدرة الله في كونه كثيرة .. فهو وحده الذي ينصر عباده الصالحين، وهو الذي ينصر الضعيف على القوي، وينتقم للمظلوم من الظالم، وكل ما في الكون خاضع لطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى.

على أن طلاقة القدرة في تغيير ما هو ثابت من قوانين الكون إنما سيأتي عند نهاية الحياة على الأرض.. حينئذ يغير الله القوانين كلها ويحدث الدمار الشامل، وتنتهي الحياة على الأرض، بل وفي الكون كله، وساحتها لا يكون هناك وجود إلا الله سبحانه وتعالى الحي الذي لا يموت.. وذلك مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) ﴾ [الانفطار]

وقوله تعالى:

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

وقوله تعالى:

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) ﴾

[الانشقاق]

وقوله تعالى:

﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

إذن: الذين يقولون: إن عظمة الله سبحانه وتعالى في خلقه هي الثبات والدقة التي لا تتأثر بالزمن، والتي تبقى ملايين السنين دون أن تختل ولو ثانية واحدة. نقول لهم: هذه موجودة وانظروا إلى القوانين الكونية ودقتها، وكيف أنها لم تتأثر بالزمن.

والذين يقولون: إن عظمة الحق سبحانه وتعالى في طلاقة قدرته في كونه وألا تكون هذه القدرة مقيدة بالأسباب.. نقول لهم: انظروا في الكون وحولكم مظاهر طلاقة القدرة، وليست هذه المظاهر مختفية أو مستورة، بل هي ظاهرة أمامنا جميعاً، وليست في أحداث بعيدة عن حياتنا.. بل هي تحدث لنا كل يوم.

وإذا صاح إنسان من قلبه: (ربنا كبير) أو (ربنا موجود) أو (ربك يمهل ولا يهمل)، فمعنى ذلك أنه رأى طلاقة قدرة الله تنصف مظلوماً، أو تنتقم من ظالم، أو تنصر ضعيفاً على قوى، أو تأخذ قوياً وهو محاط بكل قوته الدنيوية.

فالإنسان لا يتذكر قدرة الله عندما يرى الكون أمامه يمضى بالأسباب؛ لأن ذلك شيء عادى ولا يوجب التعجب.

فانتصار القوى على الضعيف لا يثير فى النفس اندهاشاً ، وشروق الشمس كل صباح لا يستوقف الذهن ، ولكننا نتذكر قدرة الله إذا اختلت الأسباب أمامنا ، وجاء المسبب ليعطينا ما لا يتفق مع الأسباب ولا مع قوانينها.

هذا عن طلاقة علم الله سبحانه وتعالى وطلاقة قدرته ، فإذا تأملنا صفة أخرى من صفات الحق عز وجل وهى صفة "الخلق" ، نجد أنه تبارك وتعالى لم يضن على عباده بصفة الخلق ، فقال سبحانه وتعالى:

﴿ .. فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

نعم .. استطاع البشر خلال ارتقاءات حياتهم المادية أن يتوصلوا إلى أشياء واكتشافات ، ولكن الاكتشافات العلمية لا تستطيع أن توجد من عدم .. فهم يأخذون المادة - التى خلقها الله - ويستخدمون العقل - المخلوق من الله - فيما يفعلون.

فعلى سبيل المثال: الذى يصنع الكوب يستخدم المادة الموجودة فى الأرض من الرمال الخاصة ، ويستخدم الطاقة التى خلقها الله فى الكون لصناعة هذا الكوب. ولكن هناك فرقاً بين ما يصنعه البشر ، وما يتم بقدرة الله تبارك وتعالى ، فكل صناعات البشر لا يستطيع الإنسان أن يهب لها الحياة ، كأن يجعلها تتكاثر بذاتها لتعطيك مثلها ، فلا يستطيع إنسان أن يصنع كوباً ذكراً وكوباً أنثى ، ثم يجعلها

تتكاثر بذاتها ، كما أنه لا يستطيع أن يعطيها خاصية النمو بحيث تنمو الكوب الصغيرة وتصبح كوباً كبيرة.

فصنعة المخلوق تجمد وتبقى على حالتها ولا تنتج مثلها ، ولكن صنعة الله سبحانه وتعالى تختلف ، ذلك أنه خلق من غير موجود .. بمعنى أنه ليست الصناعة فقط من خلقه ، ولكن المادة أيضاً من خلقه ، وليست الصناعة على غرار شيء موجود.

هذا هو الفارق بين صنع الخالق وصنع المخلوق .. إن صنعة الله عز وجل تنمو بذاتها وتتكاثر ذاتياً فتعطي مثلها ، والمخلوق لا يستطيع أن يفعل ذلك ، إن الله سبحانه وتعالى خلق من لا شيء ، وأنت خلقت من أشياء موجودة.

إننا إذا أردنا الطعام مثلاً نأتي الأرض نحرثها ونزرعها ، ثم نحصد ونطحن ونخبز ونُعدّ الطعام.

إذن : أنا أخذت من كون الله بالفكر الذي أعطاه لي ، والطاقة التي زودني بها ، وكل هذه الأشياء موهوبة من الله ، وكل ما فعلته أنني استخدمت موجوداً .. ولكن الأصل في الوجود أنا لم آت به ، ذلك أن الخلق الأول من الله سبحانه وتعالى.

حبة القمح التي زرعتها وأنتجت لك المحصول من أين جئت بها ؟ من المحصول الذي قبله ! ومن أين أتيت بالمحصول الذي قبله ؟ من ذلك الزرع الذي زرع منذ عامين ! وتظل تمضي في تتبع حبة القمح

التي في يدك لتصل إلى البداية ، وهي أنها من صنع الله عز وجل الذي أتقن كل شيء .

ولكن هل أوجدها الله سبحانه وتعالى من محصول سابق ؟ لا .. وإنما أوجدها من عدم ، وكذلك كل ما في الكون .. الإيجاد الأول من الله ، والله سبحانه وتعالى هدى الإنسان إلى أن يعرف خصائص هذا الوجود الأول ، ليأخذها وتعطيه وجوداً ثانياً وثالثاً ورابعاً وهكذا ، ثم بعد ذلك تدور دورة الحياة مرات ومرات ، واقرأ قوله تعالى :

﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ..(١٠٤) ﴾ [الأنبياء]

ومما سبق يتبين لنا أن صفة الخلق لدى الله سبحانه وتعالى مطلقة ، فهو يخلق ما يشاء ، وقد أكد الحق سبحانه وتعالى طلاقة هذه الصفة بالعديد من الآيات القرآنية ، فقال عز وجل :

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون (٨٢) ﴾ [يس]

﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم .. (٩٩) ﴾ [الإسراء]

﴿ ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء ..(٤٥) ﴾ [النور]

﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ..(٦٨) ﴾ [القصص]

﴿ ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء ..(٥٤) ﴾ [الروم]

﴿ أوليس الذى خلق السمـوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم (٨١) ﴾ [يس]

﴿ لله ملك السمـوات والأرض يخلق ما يشاء ..(٤٩) ﴾ [الشورى]

ولا يظن أحد أن الطلاقة تتعلق بالصفات التى تحدثنا عنها فقط ، وهى العلم والقدرة والخلق ؛ لأن الطلاقة وصف لجميع صفات الله عز وجل ، فكل صفاته مطلقة لا تخضع للأسباب والقيود ، ولا يحدها حدٌ .

فعزته جلَّ وعلا مطلقة ، وسمعه مطلق ، وحكمته مطلقة ، وبصره مطلق ، وعظمته مطلقة ، وعدله مطلق ، وكرمه مطلق ، ورحمته مطلقة .

وقد حاول البعض التشكيك فى طلاقة صفة الرحمة لدى الله عز وجل فقالوا : إن رحمة الله ليست مطلقة .. وإلا لما أدخل أحداً جهنم ! !

والحقيقة أن هذا فهمٌ قاصرٌ .. إذ إن رحمة الله قد شملت جميع مخلوقاته ، منذ أن خلقهم من العدم المطلق ، وتكفل بتوفير مقومات الحياة لهم من هواء وماء وطعام إلى غير ذلك مما لا نستطيع حصره ، وفى مقابل ذلك طلب منهم عبادته وطاعته بما هو ميسور لهم من العبادات ، وهذه العبادة ليست إلا قياماً ببعض الأعمال وامتناعاً عن بعض .. علماً بأن الالتزام بالفعل والامتناع عنه يكفل لهم حياة كريمة هادئة ، ويحقق لهم الأمن والأمان وسعادة الدنيا والآخرة .

فإذا أطاعوا الله فيما أمر به ونهى عنه فستشملهم رحمته فى الآخرة كما شملتهم فى الدنيا ، وأما من عصى ولم يعبد الله بما يتناسب مع نعمه عليه ، فقد أسقط عن نفسه موجبات الرحمة فى الآخرة ، واستحق أن يعامله الحق عز وجل بمقتضى عدله المطلق ، والذى يقتضى معاملة كل إنسان وفقاً لعمله فى الدنيا .

ولو ساوى الله بين عباده فى الحساب وأدخل الجميع فسيح جناته ، لأصبح ظالماً لعباده الصالحين الطائعين .. فعدله عز وجل يقتضى أن يكون رحمن الدنيا ، فتشمل رحمته فى الدنيا جميع خلقه ، وأن يكون رحيم الآخرة فتشمل رحمته فى الآخرة عباده الصالحين الطائعين .

بل إن تعذيب النفوس الشريرة التى دأبت على المعصية قد يكون رحمة من الله سبحانه وتعالى لتطهير هذه النفوس من شرها وعنادها ، فإذا أدخلها الجنة بعد ذلك دخلت طاهرة بما يتناسب مع قداسة الجنة وقداسة أهلها .

هناك صفات يختص بها الحق سبحانه وتعالى دون سواه.. كصفة الخلق من العدم المطلق، وصفة الإحياء والإماتة والبعث والأزلية، وهناك من الصفات ما هو مشترك بين الحق عز وجل ومخلوقاته.

فعلى سبيل المثال.. نحن نشترك مع الحق عز وجل في صفات مثل: السمع والبصر والقدرة والكلام وغيرها من الصفات.

فما الفرق بين الصفة في الله عز وجل والصفة في خلقه؟

ذكرنا من قبل أن صفات الله عز وجل تبلغ منتهى الكمال.. بمعنى أن الصفة غير محدودة، وغير مقيدة بالأسباب والقوانين.. فأنت قادر، ولكن قدرتك محدودة.. تقدر على أشياء ولا تقدر على أخرى، وقدرتك تتغير مع تغيُّر عمرك من ضعف الطفولة إلى قوة الشباب إلى ضعف الشيخوخة.. وقدرتك تنتهي بموتك.. بينما قدرة الحق جل وعلا مطلقة؛ لأنه قادر على كل شيء، كما أن قدرته تتحدى القوانين، وقدرته لا تضعف أو تنقص أو تنتهي؛ لأنها صفات الكمال المطلق الواجب لذاته عز وجل، والكمال المطلق لصفاته يقتضي دوامها بلا نهاية.

والله سبحانه وتعالى قد حثنا على التفكر في صفاته من حيث كمال هذه الصفات وطلاقتها، كما حثنا على التفكر في مخلوقاته؛ لأن التفكير فيها يلفتنا إلى كمال صفاته، وهذا يعني أنك حين تفكر في هذه الصفات ينبغي أن تجعل تفكيرك محكوماً بإطار «ليس كمثله شيء».

فلتؤمن بأن الله - عز وجل - سميع ، وأن سمعه مطلق ، ولكن إيَّاك أن تفكر في كيفية هذا السمع .. هل يسمع بأذن؟ أم بأذنين؟ أم ليس له أذن بالمرة؟؟!

ولتؤمن أن الله - عز وجل - بصير ، وأن بصره مطلق ، ولكن إيَّاك أن تفكر في كيفية هذا الإبصار .. هل يبصر بعين؟ أم بعينين؟ أم ليس له عيون مادية بالمرة؟

ولتؤمن أن الله يتكلم ، ولكن إياك أن تفكر في وسيلة الكلام لديه - عز وجل - هل يتكلم بلسان؟ أم بدون لسان؟ خذ جميع صفات الحق - عز وجل - في إطار «ليس كمثله شيء» .

فليكن إيمانك بوجود الصفة وكمالها بعيداً عن كيفية تعلقها بالذات الإلهية العلية ، ومن صفات الحق سبحانه وتعالى أنه أحد .. أي: ليس له أجزاء (أي: غير مُركَّب) ، وهذا يتفق مع مقتضيات العقل؛ لأن الذي له أجزاء يلزم أن يسبقه آخر ليجمع هذه الأجزاء مع بعضها البعض فينتج هذا المركَّب ، كما أن زوال أجزاء المركَّب يؤدي إلى زواله ، وكونه بأجزاء يجعله محدوداً بحدود أجزائه . والله سبحانه وتعالى فوق التحديد .

ولننظر إلى قوله تعالى :

﴿ يد الله فوق أيديهم .. (١٠) ﴾ [الفتح]

وقوله تعالى :

﴿ ولتصنع على عيني .. (٣٩) ﴾ [طه]

وقوله تعالى:

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ [الرحمن]

وقول المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم:

«إن يمين الله ملأى، لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم ينقص ما في يمينه، وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الفيض - أو القبض - يرفع ويخفض».

وفي الحقيقة أنه لا تعارض بين أحدية الله عز وجل وبين أن يكون له يد وعين ووجه؛ لأن هذه استخدامات مجازية الغرض منها التقريب، فالحق سبحانه وتعالى يعلم أن قياسات الإنسان تكون على وفق ما يعلم من ذوات المخلوقات، فأنت لا تتصور كيف يرى الله بلا عين كعينك، ولا تتصور كيف يسمع بلا أذن كأذنك، ولا تتصور كيف يتكلم بلا لسان كلسانك، ولذلك جاءت هذه الكلمات للتقريب.

وإذا تأملنا الآية الكريمة:

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ [الرحمن]

نجد أن كلمة وجه لا تعني الوجه الذي نتصوره؛ لأن الحق سبحانه وتعالى أشار إلى أن له يداً وأن له عيناً.

فحين يقول - جل وعلا : إن كل شيء سيفنى إلا وجهه .. فهل يعنى ذلك أن يده ستفنى ، وأن يدا ستفنى ، وأن عينه ستفنى؟ . بالقطع لن يحدث ذلك .

إذن : كلمة "وجه" هنا تعنى "ذات" ، فيكون المعنى أن كل شيء سيفنى عدا ذاته جل وعلا .

وفضلاً عن ذلك فقد حثنا الحق سبحانه وتعالى - كما جاء فى العديد من الأحاديث النبوية الشريفة - على التفكر فى صفات الله عز وجل والتفكر فى مخلوقاته ، ونهى عن التفكر فى الذات الإلهية العلية . وأوضح أن عاقبة هذا التفكير هى الضلال والهلاك ، وسنتحدث عن علة ذلك فيما يلى .

حث الحق سبحانه وتعالى على التفكر في كلامه وصفاته، كما حث على التفكر في مخلوقاته بآيات ليسهل حصرها، وذلك لأن التفكر في مخلوقاته يلفت النظر إلى كمال صفاته، وفي ذلك يقول جل وعلا:

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون (١٦٤) ﴾ [البقرة]

ويقول تعالى:

﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون (٢٥) وله من في السموات والأرض كل له قانتون (٢٦) وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم (٢٧) ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون (٢٨) ﴾ [الروم]

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون (٤٣) ﴾ [العنكبوت]

وقوله تعالى:

﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق .. (٨) ﴾ [الروم]

وقوله تعالى:

﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء .. (١٨٥) ﴾ [الأعراف]

وقوله تعالى:

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج (٦) ﴾ [ق]

وقوله تعالى:

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت (١٧) ﴾ [الغاشية]

وقوله تعالى:

﴿ أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون (٢٧) ﴾ [السجدة]

وقوله تعالى:

﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها (٢٤) ﴾ [محمد]

لقد جعل الحق سبحانه وتعالى التفكر والتدبر في مخلوقاته وصفاته وكلامه فريضة على كل إنسان ، فإذا كان الحق سبحانه وتعالى حريصاً على انطلاق فكر المؤمن بهذه الكيفية ، فما الحكمة من النهى عن التفكر في ذاته عز وجل من خلال عدة أحاديث نبوية شريفة ، نذكر منها قول المصطفى ﷺ: «تَفكَّروا في صفات الله ، ولا تَتفكَّروا في ذاته فتضلوا».

الحكمة واضحة جلية .. فالحق سبحانه وتعالى إذا أمر بشيء ، فثق أن في فعله خيراً لفاعله ولمن أحاط به ، ولا ينهى عن شيء إلا وتجد من جراء فعله شراً بفاعله وبمن أحاط به ، فقد أمرنا عز وجل بإيتاء الزكاة ، وأمرنا بالتصدق على الفقراء والمساكين ، وأمرنا أن نصدق في القول والعمل ، وأن ندفع السيئة بالحسنة ، وغير ذلك من الأوامر.

فإذا تأملت هذه الفضائل وأثرها على المجتمع عامة والفرد خاصة لعلمت الحكمة من الأمر بفعلها.

وقد نهانا عز وجل عن قتل النفس بغير حق ، والسرقة والزنا وشرب الخمر والغيبة والنميمة والكذب ، وأن ندخل البيوت بغير إذن أهلها ، وغير ذلك من النواهي.

فإذا تأملت هذه النواهي وما في تركها من أثر حميد على تاركها وعلى من أحاط به لأدركت الحكمة من النهي عنها.

وإذا تأملت الأوامر والنواهي تلحظ أن الحق سبحانه وتعالى لا يأمر إلا بمستطاع .. فإذا كانت القاعدة أنه عز وجل لا يأمر أو ينهى إلا عن

شيء يستطيع الإنسان فعله أو الامتناع عنه ، وأن الخير لصيق بالفعل في الأوامر وبالامتناع في النواهي .. فما الحكمة إذن من النهي عن التفكّر في الذات الإلهية العلية؟

للإجابة عن هذا السؤال نقول: إن الله سبحانه وتعالى حين أمرنا بالتفكر في مخلوقاته .. أمرنا بذلك لأنه يعلم أن التفكير في المخلوقات يؤدي إلى الإيمان بكمال الصفات .. إذ إن كل صفة من صفات الحق - عز وجل - لها ما يدل على وجودها وكمالها في هذا الكون الفسيح.

فكان الأمر إذن لحكمة .. ألا وهي تيسير الإيمان بوجود الله سبحانه وتعالى بكمال صفاته ، وفي هذا خير عظيم للإنسان؛ لأن الإيمان بوجود الله سبحانه وتعالى وكماله ينشيء في قلب الإنسان محبة الله عز وجل ، وفي ضميره الشعور بالامتنان ، وهذا يقوده إلى الالتزام مع الله بطاعته واجتناب معصيته؛ ولذلك يقول الحق عز وجل:

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ...(٢٨) ﴾ [فاطر]

فإذا انتقلنا إلى النهي عن التفكر في ذاته وجدنا الحكمة جلية .. لماذا؟ لأن العقل البشري في علمه محدود بحدود المحيط الكوني .. هكذا أراده الله سبحانه وتعالى ، والذات الإلهية العلية خارج هذا النطاق ، فيكون التفكير فيها خارجاً عن نطاق العقل البشري .. وبذلك يكون التفكير إجهاداً ليس من ورائه طائل.

الأمر الثاني: أن الحق سبحانه وتعالى كما ورد في الآية الكريمة:

﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .. (١١) ﴾ [الشورى]

لو كان له شبيه لجاز أن نتصور ذاته عز وجل من خلال هذا التشابه ، ولكن حاشا لله أن يكون له شبيه ، أضف إلى ذلك أنك إذا تصورت الذات الإلهية فقد حددتها .. وتحديدك لها يكون وفقاً لما تعلم من ذوات المخلوقات ، والحق سبحانه وتعالى فوق التحديد.

وإليك بعض الأمثلة على التفكير المنهى عنه: هل الله سبحانه وتعالى له جسم ، أم ليس له جسم؟ هل هو على شكل إنسان أم على شكل آخر؟ هل هو ذكر أم أنثى؟ ما شكل يد الله عز وجل؟ ما شكل عينه؟ ما شكل وجهه؟

كل هذه تساؤلات وتصورات تدخل فى إطار التحريم للأسباب التى ذكرناها من قبل ، وعلى الرغم من هذا النهى عن التفكر فى الذات الإلهية العلية ، إلا أن الحق سبحانه لم يشأ لصورته أن تكون معدومة فى عقولنا؛ لأنه يعلم أن الإنسان محكوم بماديته ، ويعلم أن الإنسان بحاجة إلى تصور عن خالقه ، فحقق له هذه الرغبة فى قوله تعالى:

﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم (٣٥) ﴾ [النور]

فإذا شئت أن تتصور خالقك ، فتصور من النور قدر ما استطعت ، لأنه سبحانه وتعالى نور السموات والأرض ، ونوره ليس كتلك الأنوار التى نعرفها ، وإن كانت جميع الأنوار من نوره عز وجل ، ويوم تقوم الساعة ويدخل المؤمنون جنات الخلد .. ساعتئذ سيرى المؤمنون ربهم كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

كما قال جرير رضى الله عنه وأرضاه : «كنا جلوساً عند النبى ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر ، قال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم ألا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا» .

كما روى جرير أيضاً عن النبى ﷺ أنه قال : «إنكم سترون ربكم عياناً» .

كما قال أبو هريرة رضى الله عنه وأرضاه : «إن الناس قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ : هل تُضارون فى القمر ليلة البدر؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : فهل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : إنكم ترونه كذلك» .

انه عز وجل نور فى نور .. ومن نالوا شرف استحقاق الجنة سوف يهيئهم الحق عز وجل لرؤية وجهه الكريم ، وساعتها سيعرفون عياناً بياناً المعنى الحقيقى لأحد أسمائه الحسنى وهو (النور) جل جلاله .

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه ...﴾(١٨٠) [الأعراف]

الدعاء هو نداء من الأدنى إلى الأعلى .. ولا يتوجه أحد بالدعاء إلا لمن قدرته فوق قدرات الداعي ، وبالنسبة لله عز وجل فإننا نتوجه إليه بالدعاء ؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يستعصى عليه أمر فى هذا الكون ، فإذا ، إذا أردت شيئاً وعجزت أسبابك عن تحقيقه ، فإنك تستغيث بالأعلى فى هذا الكون الذى لا تحكمه الأسباب ، فتقول : يا رب ، متوجهاً إلى تلك القوة والقدرة التى أوجدت هذا الكون وخلقت أسبابه . .علّه سبحانه وتعالى يحقق لك ما عجزت عن تحقيقه .

والدعاء دائماً يكون لطلب ما تعتقد أنه خير لك .. وكل إنسان منا يريد الخير ولكنه يحدده من وجهة نظره ، وعلى قدر علمه .. وهو يرى فى المال خيراً فيطلبه ، ويرى فى النفوذ خيراً ، فيسأل الله أن يعطيه .

والدعاء بالأسماء الحسنى يعنى أن تدعو الله باسمه الذى يوافق طلبك كأن تقول : يا حكيم هبنى حكمة .. يا عزيز أعزنى على خلقك .. يا قادر هبنى قدرة .. يا عليم هبنى علماً .. يا رزاق وسّع لى رزقى .. يا رحيم ارحمنى فى الدنيا والآخرة .. يا كريم هبنى من بحر جودك الواسع .

يا غفار اغفر لى ذنوبى ما ظهر منها وما بطن .. يا عدل لا تمكّن منى ظالماً .. يا عفوُ اعفُ عنى .. يا غنى أغننى بك عمّن سواك .. يا هادى

اهدنى إلى سواء السبيل.. يا مانع امنع عنى كل مكروه.. يا حفيظ احفظنى من كل سوء.. يا صبور هبنى صبراً على كل بلاء.. يا سميع اسمع دعائى.. يا مجيب أجب دعائى.

ومن الدعاء بالأسماء الحسنى أيضاً أن نرددها ونكررها، كأن تقول: هو الله الذى لا إله إلا هو، الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر... إلخ.

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه .. (١٨٠) ﴾ [الأعراف]

أصل الإلحاد في اللغة: العدول عن القصد، والميل والجور والانحراف، وهو أيضاً بمعنى التكذيب والكفر، ومنه قوله تعالى:

﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا .. (٤٠) ﴾ [فصلت]

أي: الذين يكذبون ويكفرون بها. وأيضاً قوله تعالى:

﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين .. (١٠٣) ﴾ [النحل]

والمعنى .. أن لسان الشخص الذي يميلون إلى أنه علّم الرسول - عليه الصلاة والسلام - القرآن أعجمي .. والقرآن بلسان عربي مبين، فكيف يتعلمه الرسول عليه الصلاة والسلام ممن لا يعرف العربية؟ وقد استخدم الحق جل وعلا الفعل (يلحدون) لأنه يعبر عن الميل عن الحق وجادّة الصواب، وليس مجرد الميل فحسب.

والإلحاد في أسماء الله الحسنى له أكثر من معنى .. فتكذيب الإنسان لهذه الأسماء بما تعنيه من أوصاف يمثل إلحاداً بها .. فالكافر ملحد بأسماء الله الحسنى؛ لأنه لا يعقل أن يؤمن بصفات الله عز وجل من أنكر وجوده، ولا يشترط أن ينكر الإنسان جميع صفات الله عز وجل حتى يصبح ملحداً في أسمائه .. فمن أنكر بعض الصفات فقد

ألحد أيضاً في أسماء الله تبارك وتعالى ، ومن أقر بهذه الصفات وأنكر طلاقتها وبلوغها غاية الكمال فقد ألحد في الأسماء الحسنى .

هناك من الملحدين - على سبيل المثال - من يحاول أن يبرهن لك بأمثلة واهية على أن الحق سبحانه وتعالى لا يستطيع خرق النواميس الكونية ، أو يحاول إقناعك بأن صفات الحق جل وعلا ليست مطلقة ، وغير ذلك كثير .

ومن الإلحاد في أسماء الله عز وجل أن يتخطى الإنسان النهى عن التفكر في ذات الله عز وجل ، وأن يخرج عن إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ..(١١) ﴾ [الشورى]

فيحاول أن يرسم تصوراً للحق جل وعلا عن ذلك .. فيبحث عن شكل يد الله ، أو عين الله ، أو هرولة الله ، أو كيفية كلام الله .. فكل هذه الصور السابقة تمثل إلحاداً في أسماء الله الحسنى تبارك وتعالى على أن يحيط بذاته غيره .

إن كمال الحق عز وجل ليس في كمال كل صفة من صفاته على حدة فحسب ، بل إن هناك تكاملاً بين هذه الصفات في مجموعها .. فصفاته جل وعلا تتكامل فيما بينها بما يؤدى إلى الكمال المطلق الواجب له عز وجل الذى وصف به نفسه ، فهو تبارك وتعالى حليم في غير ضعف ، وقادر بلا ظلم ، ورحمته مطلقة بما لا يناقض عدله .

وقد ذكرنا من قبل أن بعضاً من الملحدين في أسمائه جل وعلا أراد أن يبرهن لنا على أن رحمة الله عز وجل ليست مطلقة .. فقال : كيف

تكون رحمة الله عز وجل مطلقة وهو يدخل بعضاً من خلقه جهنم وبئس المصير؟ فلو كانت رحمته مطلقة لما أذاق أحداً من خلقه أي نوع من أنواع العذاب؟

ونقول له ولطائفته: هل الرحمة المطلقة كما تفهمها تقتضي من الحق عز وجل أن يرحم رجلاً - على سبيل المثال - قضى حياته في بيع الخمور، والمخدرات بما فيها الأدوية المخصصة للعلاج، وهو يعلم أنها تدمر شباباً في مقتبل العمر وتقضي على إنسانيتهم بالقضاء على عقولهم، . ويعلم أن دمارهم يؤدي إلى دمار أسرهم . . وهو لا يبالي بكل ذلك في سبيل تحقيق رغباته وأحلامه الشيطانية . . ولا يبالي بسخط الله عليه .

هل هذه هي الرحمة المطلقة؟ وإذا كانت الرحمة المطلقة تعني ذلك، فأين هذه الرحمة المطلقة حين أهملت آلاف الضحايا من هؤلاء الشباب وأسرهم، وأهملت العناء الذي عاشوه من جراء ذلك الذي تسعى إلى استحقاقه للرحمة المطلقة؟ وأين عدل الله الذي يقتضي أن يعامل كل إنسان بحسب عمله في الدنيا، إنْ خيراً فخير وإنْ شراً فشر؟

إن طلاقة صفة الرحمة لا تتعارض مع وجوب تحقُّق موجباتها، وإن كمال هذه الصفة يكون بما لا يتعارض مع كمال صفة العدل الإلهي، فكما ذكرنا من قبل: إن صفة العدل الإلهي تقتضي من الله عز وجل أن يكون رحمن الدنيا، فتشمل رحمته في الدنيا جميع

خلقه، وأن يكون رحيم الآخرة فتشمل رحمته في الآخرة عباده الصالحين الطائعين.

وهكذا شأن جميع الصفات الإلهية العلية.. وهذا هو الكمال المطلق الواجب للحق عز وجل الذى نعت به نفسه.

هناك أسئلة تلح على عقل الإنسان بوسوسة الشيطان منها: من خالق الله عز وجل؟

نقول لمن يسأل هذا السؤال: إن الله عز وجل ليس مخلوقاً حتى تسأل عن خالقه.. فهو تبارك وتعالى موجود بلا بداية، وأبدى بلا نهاية، وهو سبحانه وتعالى بذاته وأسمائه وصفاته هو الخالق وما سواه مخلوق له.

والحق سبحانه وتعالى حين حرم التفكير فى ذاته.. فلأنه يعلم أن تفكير الإنسان يكون وفقاً لما يعلم من ذوات المخلوقات، ويعلم أن تفكيره محدود بحدود محيطه الكونى، فى حين أن ما ينطبق علينا من أحكام لا ينطبق على الحق جل وعلا؛ لأنه هو الذى خلق هذه الأحكام والقوانين.. فهو إذن المهيمن عليها.

فأنت حين تسأل عمَّنْ خلق الله عز وجل، فإنك تسأل وفقاً لقاعدة فى ذهنك، وهى «أن لكل مخلوق خالقاً».. ولكنك نسيت أن الحق سبحانه وتعالى هو الخالق لهذه القاعدة، وحينما وضعها فى نظامنا العقلى، فقد وضعها ليلفتنا إلى وجوده.

إننا حين ننظر إلى الكون بما فيه من مخلوقات ندرك أنه لابد أن يكون لها خالق.. ولكن هذه القاعدة لا تنطبق عليه سبحانه.. ولا يصح أن نقول: إنه إذا كان لكل مخلوق خالق.. فمن خلق الله عز وجل؟ لأن الحق تبارك وتعالى ليس مخلوقاً حتى يكون له خالق.. فصفة الخلق من الصفات الذاتية للحق تبارك وتعالى، والتى لا يجوز فيها العكس كالعزيز والحى.. إذ لا يصح أن نقول: إن من أسمائه

أو صفاته الدليل أو الميت أو المخلوق .. فإذا انتفى أنه عز وجل مخلوق .. فيكون سؤالك عن خلق الله عز وجل سؤالاً أحمق!

وكون الإنسان لا يستطيع أن يتخيل ويتصور حقيقة أن الله موجود غير مخلوق ، فهذا لا يعني انتفاء هذه الحقيقة ، وقد قلنا من قبل : إنه يجب أن نميِّز بين وجود الشيء وبين قدرتنا على إدراك وتصور وجود هذا الشيء ؛ لأن عدم إدراكنا أو تصورنا لوجود شيء ما ، لا يعني أن هذا الشيء غير موجود.

فإذا حدثنا الله عن الملائكة وعن الجنة وعن النار وعن الشياطين ، فلا بد أن نصدق ليس بالدليل الإيماني فقط المبني على أن القائل هو الله عز وجل ، وإنما لأنه سبحانه وتعالى أعطى الدليل المادي لغير المؤمن به على أن الغيب موجود ، وإن لم نكن ندرك أو نتصور وجوده .. وأعطاه لنا من أحداث هذا الكون وما وقع فيه من ماديات .

فإذا أخذنا مثلاً الجراثيم .. تلك المخلوقات الدقيقة التي تهاجم جسد الإنسان وتصيبه بالمرض ، هذه الجراثيم التي عاشت مع الإنسان عمره كله .. إلا أننا في أول الحياة البشرية وحتى فترة قصيرة لم نكن نعرف عنها شيئاً .. ثم تقدم العلم وتوصل العلماء إلى الميكروسكوبات الإلكترونية التي تُكبِّر حجم الشيء ملايين المرات .. فماذا رأينا؟ . رأينا عجباً .. ميكروبات لها شكل ولها حركة .. ولها حياة ولها تناسل وتكاثر .. ولها طريقة لتخترق جسم الإنسان وتصل إلى الدم ، ولها تفاعلات مع كرات الدم .

عالم كبير لم نكن نعرف عنه شيئاً ، بل كان غيباً عنا منذ مائة سنة ، ومع ذلك ومع كونه غيباً عنا.. فهل هذا العالم لم يكن موجوداً؟!

لا.. لقد كان موجوداً يؤدى مهمته فى الحياة.. وكان العلماء فى الماضى يعتقدون أن المرض معناه أن الأرواح الشريرة قد تلبَّست جسد الإنسان ، وكانوا يضربون المرضى ، أو يكوون أجزاء من أجسادهم حتى تخرج هذه الأرواح الشريرة!

ثم تقدم العلم ، واستطعنا أن نرى رؤية العين هذه الجراثيم ، وهى تتحرك وتتناسل وتخترق وتحارب ، بل استطعنا فى تجاربنا العلمية أن ندخل هذه الجراثيم إلى أجساد الحيوانات ؛ لندرس دورة حياتها وكيفية القضاء عليها ، وهكذا أعطانا الله الدليل المادى على أن ما هو غيب عنا موجود ويؤدى مهمته فى الحياة.. وأن عدم إدراكنا وتصورنا لوجوده لا يعنى عدم هذا الوجود.

فيجب أن تفرق أيها السائل بين حقيقة أن الله موجود غير مخلوق ، وبين كونك لا تستطيع أن تتصور موجوداً غير مخلوق ، فالقوانين التى تحكم حياتك ومعادلاتك الرياضية والكيميائية والفيزيائية هى من خلق الله عز وجل ، ولا يمكن أن تنطبق عليه بحال من الأحوال.

ما هو الاسم الأعظم ؟

لقد قالوا عنه الكثير ، قالوا : إنه مالك الملك ، وقالوا : الحى القيوم ، وقالوا : إنه الاسم الذى إذا دُعى به الحق سبحانه وتعالى أجاب ، وكأنهم يريدون توظيف هذا الاسم ! ! ولكننا نقول : إن الاسم الأعظم للحق عز وجل هو الاسم الذى حوى جميع كمالات الأوصاف . . إنه لفظ الجلالة (الله) .

ولقد قلنا من قبل : إن الدعاء بالأسماء الحسنى يعنى أن تدعو الله بالاسم الذى يوافق طلبك ، كأن تقول : يا حكيم هبنى حكمة ، يا عزيز أعزنى على خلقك .

فإذا قلت : يا الله ، فقد دعوته عز وجل بجميع صفات الكمال الواجبة لذاته العلية ، والتى وصف بها نفسه . . لفظ الجلالة (الله) .

إنه أيضًا الاسم الذى ليس له سَمِىٌّ فيه ، أى : شريك . . هل شاهدت أو سمعت عن أحد سمى ابنه الله ؟ لم يحدث ، بل إن الكافرين المجترئين على الله عز وجل ، لم يجرؤ منهم أحد على فعل ذلك ، فالكافر غير متيقن من عدم وجود الله عز وجل ، فيخشى أن يسمى ابنه بلفظ الجلالة فيصيبه مكروه ، أو يلقى مصرعه ، فالاسم الأعظم إذن هو : (الله) جل جلاله .

أشرنا من قبل إلى صفات مشتركة بين الله عز وجل ومخلوقاته .. وقلنا : إنه رغم هذا الاشتراك ، فإن صفات الحق جل وعلا تظل في إطار (ليس كمثله شيء) ، فهو تبارك وتعالى متفرد بجميع صفاته حتى تلك التي يتصف بها أحد من خلقه .. فصفة المخلوق ما هي إلا نفحة من صفة الخالق عز وجل ، ولا تضاهيها قدراً ولا نوعاً.

إذن : فانفراد الله تبارك وتعالى بجميع صفاته هو القاعدة ، حتى وإن كانت هناك صفات له جل وعلا موجودة في غيره من مخلوقاته .. ولكن ينبغي أن نلاحظ أن هناك صفات لله يختص بها ، ولا توجد في أي من مخلوقاته بأي درجة من الدرجات ، فهي صفات له وحده دون سواه.

ومن أمثلة هذه الصفات (الوحدانية) والتي تعني أن الله عز وجل واحد ليس معه ثان على وفق صفاته الإلهية الكاملة ، لأنه ليس بنوع تتعدد أفراده ، فالإنسان مثلاً نوع .. أي : يوجد منه العديد من الأفراد تجمعهم وحدة الصفات ، وإن كانت صفاتهم تختلف من حيث درجة الصفة ، ونوع الإنسان ينقسم إلى ذكر وأنثى ، وهم يتزاوجون ويتكاثرون وينجبون صغاراً من نوعهم نفسه . وهكذا شأن جميع المخلوقات.

أما الحق سبحانه وتعالى فهو ليس فرداً في نوع ، وإنما هو واحد ليس له مثيل . فما هو بذكر ، وما هو بأنثى ، وما هو بأب ، وما هو بأم ، وما هو بأخ ، وما هو بأخت ، وليس له كفواً أحد ، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى :

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص]

ومن الصفات الخاصة التي ينفرد بها عز وجل (الأزلية) .. فما هي الأزلية؟ وماذا نعني بقولنا: إن الله عز وجل أزلي؟

كلمة الأزل في اللغة تعني: القِدَم..

إذن: فالأزلي هو القديم، وقولنا: إن الله عز وجل قديم يعني أنه تبارك وتعالى بلا بداية.. فكل مخلوق من المخلوقات له تاريخ ميلاد، ولا يشذ عن هذه القاعدة أحد، وتاريخ ميلاد المخلوق هو تلك اللحظة التي أوجده الله عز وجل فيها.

والبشر يحسبون هذه اللحظة وفقاً للتقسيم الزمني للكرة الأرضية فنقول: إن فلاناً وُلد الساعة كذا من يوم كذا من شهر كذا عام كذا، وهذه القاعدة تنطبق على جميع المخلوقات، إلا أن البشر فقط - ولما اختصهم به الله تبارك وتعالى من العقل والفهم - هم الذين يهتمون بحساب هذه التواريخ، ولكن الأمر يختلف بالنسبة لله عز وجل.. لأنه ليس له تاريخ ميلاد، وهذا يوافق مقتضيات العقل، لأنه جل وعلا ليس مخلوقاً حتى يظهر إلى الوجود في لحظة معينة.. فهو موجود غير مخلوق، ضف إلى ذلك أن كلمتي البداية والنهاية مرتبطتان بالزمن وتدلان عليه.

فإذا كان الزمن نفسه مخلوقاً من مخلوقاته خاضعاً لأمره.. فكيف يحيط المخلوق بالخالق فيحدده ببداية ونهاية؟ فالحق سبحانه وتعالى

كان ولم يكن معه شيء على الإطلاق ، ثم خلق الخلق ، وقد قال عز وجل في الحديث القدسي : «كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف فخلقتُ الخلْق فبي عرفوني».

كما قال المصطفى ﷺ : «كان الله ، ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذِّكْر كل شيء ، وخلق السموات والأرض».

فالأزلية إذن هي وجود الله تبارك وتعالى بلا بداية .. وهي بهذا المعنى لا تنطبق إلا عليه جل وعلا وحده دون غيره من المخلوقات ، فكل مخلوق له بداية محددة ، معلومة كانت أو مجهولة .

ومن الصفات الخاصة (صفة الأبدية) والتي تعني أن الحق تبارك وتعالى موجود بلا نهاية ، وهذا يوافق مقتضيات العقل؛ فكما قلنا في صفة الأزلية : إن البداية والنهاية كلمتان مرتبطتان بالزمن وتدلان عليه، ثم كيف لا يكون أبدياً بلا نهاية ، ومن أسمائه (الباقي) ؟ فالباقي اسم مشتق من الفعل (بقى) وهو يعني : عاش .. فحين نقول : مات فلان وبقي فلان ، أي : عاش بعد وفاته ، وما بقي من الشيء هو ما ظل منه موجوداً بعد هلاكه.

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ والباقياتُ الصَّالحاتُ خيرٌ عند ربك ثوابا و خيرٌ أملاً . (٤٦) ﴾

[الكهف]

فالأعمال الصالحة فقط هي التي تبقى بعد وفاة صاحبها ، بل وبعد فناء الكون بأكمله ، وقوله تعالى :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ [الرحمن]

أي : سيفنى الوجود بأكمله ، وتبقى الذات الإلهية على قيد الحياة أزلاً وأبداً ، وكيف تكون للخالق نهاية ، ومن أسمائه (الوارث) جل جلاله؟ .. والوارث اسم مشتق من (ورث) ، وورث فلان فلاناً أي : مَلَكَ الحيُّ منهما ما كان يملكه الميت قبل وفاته ، ومنه قوله تعالى :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦) ﴾ [النمل]

وقوله تعالى :

﴿ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ..(١١) ﴾ [النساء]

وأورث زيد بكراً شيئاً ، أي : أدخله في ملكه وجعله ملكاً له ، ولا يشترط موت زيد .. بل إن زيداً هو الذي أورث بكراً ووهبه هذا الشيء ، ومنه قوله تعالى :

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ [الزخرف]

أي : تلك الجنة التي ملكتموها هبة من الله عز وجل ، وهذا هو المعنى الصحيح ؛ لأن الجنة لم تكن ملكاً لأحد قبلهم حتى يرثوها بعد مماته ، والإرث من (ورث) يقتضي موت المورِّث ، واستمرار الوارث على قيد الحياة ، ولذا فإن قوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) ﴾ [مريم]

وقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) ﴾ [الحجر]

وقوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) ﴾

[آل عمران]

جميع هذه الآيات السابقة تفيد بقاء الحق جل وعلا بعد فناء الكون بكل ما فيه من مخلوقات لله عز وجل ، فالأبدية إذن هي بقاء الله عز وجل بقاء دائماً بلا نهاية .

ومن الصفات الخاصة أيضاً صفة (الأحدية) ، والتي تعني أن الحق جل وعلا ليس (مُركّبا) أي: ليس له أجزاء ، وهذه الصفة أيضاً تتفق مع مقتضيات العقل ؛ لأن الذي له أجزاء ينبغي أن يسبقه من خلق أجزاءه وركّبها على هيئته - أي: خلقه - كما أن وجوده سيصبح مرتبطاً بوجود أجزائه وجوداً وعدماً ، بالإضافة إلى أن وجود أجزاء له سيجعله محدوداً بحدود هذه الأجزاء ، والله سبحانه وتعالى فوق التحديد ، هذا فضلاً عن أن الأجزاء تكون من المادة ، والمادة مخلوق من مخلوقات الله عز وجل ، فكيف يحل الخالق في أحد مخلوقاته؟

وجميع المخلوقات مركّبة من أجزاء ، وهذا يتفق مع كونها مخلوقة من مواد سبقت وجودها كالطين والنار أو النور ، ومحال أن تجد مخلوقاً غير مركّب ؛ لأن غير المركّب واحد فقط ، هو الله جل جلاله.

ومن الصفات الخاصة أيضاً صفة القيومية ، والتي تعني أن الحق جل وعلا قائم بذاته ، ولا يحتاج إلى غيره في قيامه.

ولكي تعرف معنى هذه الصفة انظر إلى أي مخلوق من المخلوقات.. هل تجده معتمداً على نفسه اعتماداً مطلقاً في قيامه واستمرارية حياته؟

الإجابة واضحة ، وهي أن جميع مخلوقات الله عز وجل قائمة بقيوميته تبارك وتعالى منذ أن خلقها من العدم المطلق وحتى ينتهي أجلها ، فتصعد إلى خالقها وبارئها ومصوّرها.

جميع المخلوقات - ما علمنا منها وما لم نعلم - وجدت بإيجاد الله لها ، ولو لم يخلقها لما ظهرت ، ولما صار لها وجود.

وليس ذلك فحسب ، بل إن استمرارية هذه المخلوقات فى الحياة متوقفة على مقومات حياتها ، والتى هى أيضاً منحة وهبة من الله عز وجل.

خذ مثلاً : الإنسان .. تجد أن الحق تبارك وتعالى قد أعد له هذا الكون الفسيح ، والذى لم يستطع الإنسان إلى يومنا هذا كشف كل ما انطوى عليه من أسرار ، ولم يحط بأطرافه المترامية ، كما وفر له جميع مقومات الحياة التى يحتاج إليها.

الأوكسجين الذى يستخدمه فى أكسدة المواد الغذائية ، والماء الذى يمثل معظم تكوينه ولا حصر لوظائفه فى جسم الإنسان ، كما أنبت له من الأرض غذاءه الذى لا حياة له بدونه ، وخلق له الشمس التى توفر له الحرارة بالقدر الذى يحتاجه ، فلا تزيد فتقتله الحرارة ، ولا تنقص فتقتله البرودة ، ونعم الله لا تحصى ، كما قال تعالى:

﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم (١٨) ﴾ [النحل]

فالإنسان قائم قياماً مطلقاً بالله عز وجل ، ومثله جميع المخلوقات ، فإذا انتقلنا إلى الحق جل وعلا .. هل هو قائم بنفسه أم قام بغيره؟

فلا شك أن الإجابة واضحة ؛ لأن الله عز وجل لم يسبقه آخر حتى يكون الله معتمداً عليه فى استمرارية وجوده ، فهو تبارك وتعالى قائم بذاته قياماً مطلقاً ؛ لأنه موجود غير مخلوق ، ولا يحتاج إلى غيره لا فى وجوده ، ولا فى بقائه .. فلا حاجة له إلى طعام أو شراب أو

هواء أو مؤنس على الوحدة .. فهو قائم بذاته ، مقيم لغيره من المخلوقات ، ولا شريك له فى هذه القيومية .

ومن الصفات الخاصة كذلك .. أنه عز وجل لا يحل فى مكان ، والعلة ساطعة ، وهى أن المكان مخلوق من مخلوقاته ، والخالق لا يحل فى مخلوق ، ولذلك يقول جل وعلا :

﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله .. (١١٥) ﴾
[البقرة]

ومن الصفات الخاصة أيضاً .. أن حياته تبارك وتعالى حياة مطلقة لا تنقطع بموت ، كما لا تنقطع بنوم .. فجميع المخلوقات لا بد أن تنال قسطاً من الراحة بعد التعب .. فالإنسان يعمل نهاراً وينام ليلاً أو العكس ، كلٌ حسب مواقيت عمله وراحته .. وهكذا شأن جميع مخلوقات الله تتعب وتستريح ، تنام وتصحو ، ولكن الخالق عز وجل وهو الموصوف بالكمال المطلق لا يتعب فيحتاج إلى راحة ، ولا تجهده اليقظة فيحتاج إلى النوم .

وهو كما قال عن نفسه :

﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم .. (٢٥٥) ﴾
[البقرة]

إنه عز وجل لو أخذته سنة من النوم لاختلت موازين الكون كلها ، وفى ذلك يقول جل وعلا :

﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا (٤١) ﴾ [فاطر]

ومن الصفات التى يختص بها عز وجل صفة الخلق من العدم المطلق .. فقد ذكرنا من قبل أنه تبارك وتعالى لم يضن على عباده بصفة الخلق فأشركهم معه فيها حينما قال :

﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين (١٤) ﴾ [المؤمنون]

وحقيقة الأمر أن الإنسان يصنع ولا يخلق ، فهو يصنع معدوماً من موجود ، كالنجار يصنع المقعد من الخشب المقطوع من الشجر .. وكالطائرة تصنع من معادن الأرض ، ويستخدم فيها الوقود المستخرج من باطن الأرض ، وهكذا .. فهذه أشياء لم تكن موجودة بالفعل ، ولكنها وجدت من أشياء موجودة.

أما خلق الله عز وجل فيكون من العدم المطلق ، والعدم المطلق يعنى : اللاشيئية ، فالشيء يخلق من لا شيء مادى أو معنوى .. بمعنى أن المخلوق يوجد دون أن تكون له سابقة وجود مادية أو معنوية ، فهو مستحدث بكل ما فيه من مكونات ، سواء أكانت مكونات مادية فقط كما فى حالة الجماد ، أم مكونات مادية ومعنوية كما فى حالة الإنسان مثلاً .

وفى ذلك يقول جل وعلا :

﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل (٦٢) ﴾ [الزمر]

كما يقول عز وجل :

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا (١) ﴾

[الإنسان]

وقد يقول قائل : إن هذه الصفة توجد لدينا بدليل قوله تعالى :

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

فنقول له : إن البشر يشتركون مع الحق جل وعلا فى صفة الخلق ، نعم ، ولكن حين نقول : الخلق من العدم المطلق ؛ فهى إذن من صفاته وحده ، والتى لا يشاركه فيها أحد .

ومن صفاته الخاصة - جل وعلا - أنه يعلم ذاته علماً مطلقاً كما يعلم غيره ، فالإنسان وهو أرقى المخلوقات وهو المتميز بالعقل ، ورغم ذلك فهو لا يعلم كل شىء عن ذاته ، فهو يجهل روحه جهلاً تاماً ، رغم أنها مصدر حياته ، وكل ما يعلمه عنها أنها مصدر حياته ، وهو أيضاً لا يعلم عن جسده إلا القليل ، وحتى الأطباء الذين بلغوا فى هذا العلم قدراً كبيراً لا يعلمون كل شىء عن جسد الإنسان ، ولولا علم الطب لظل جسم الإنسان مغلقاً غامضاً عليه ، لا يعرف عما يحدث بداخله شيئاً .

أما الحق تبارك وتعالى فهو يحيط بذاته إحاطة شاملة ، فيعلم كل شىء عن نفسه ، يعلم أنه الله الذى لا إله إلا هو ، ويعلم صفاته علماً تاماً ، يعلم أنه حى ، ويعلم أنه الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية ، ويعلم أنه سميع بصير قادر عالم متكلم رحمن رحيم خالق بارىء مصوِّر إلى آخر صفات الكمال الواجبة له عز وجل ، والتى وصف بها نفسه .

ومن صفاته الخاصة أيضاً أنه (فعَّال لما يريد) .. فأنت تفعل ما تريد نعم .. ولكن ذلك في حدود قدرتك .. فهب أنك أردت الوصول إلى سطح القمر بقفزة قدم واحدة .. فهل يمكنك تحقيق هذه الإرادة؟

بالقطع لن تستطيع؛ لأن قدرتك أدنى من أن تحقق إرادتك ، بل إن إرادتك نفسها محدودة بحدود محيطك الكوني ، ولكن الأمر مختلف بالنسبة للحق جل وعلا؛ لأن إرادته ليست محدودة بحدود معينة .. كما أن إرادته نافذة ، فإذا أراد شيئاً فإنه يقول له : كن فيكون.

وفي ذلك يقول عز وجل :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس]

فالحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ أَن يَقُولَ لَهُ ﴾ رغم أن هذا الشيء لم يوجد بعد .. فهل هذا يعني أن هذا الشيء كان له وجود قبل أن يخلقه الله ؟

كلا .. إنما أراد تبارك وتعالى أن يلفتنا إلى أن هذا الشيء ما دام أنه أراد خلقته فهو لا محالة مخلوق؛ لأنه لم ولا ولن يوجد ما يعوق الله عز وجل عن خلق هذا الشيء .. وفي هذا يقول تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) ﴾ [البروج]

ومن الصفات الخاصة أيضاً (الأول ، والآخر) .. فهو عز وجل الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية.

وقد يقول قائل : إن هاتين صفتان تطلقان على البشر ، كأن نقول : إن فلاناً هو الأول على مدرسته أو آخر الناجحين. فنقول له : لاحظ أنك حددت نوع الأولوية وخصصتها ، فقلت : إنه الأول على مدرسته أو جامعته ، فالتخصيص واضح ، ولكن حين نقول : الأول على الإطلاق أو الآخر على الإطلاق ، فإنهما لا ينطبقان إلا على الله عز وجل ولا يشاركه فيهما أحد ، وأولوية الله أولوية زمنية وأولوية رتبة ، فهو أول من حيث الترتيب الزمني ، وأول من حيث رتبته كخالق موصوف بكل صفات الكمال المطلق.

ومن هذه الصفات أيضاً : المحيي والمميت والباعث. ولا يظن أحد أن الله عز وجل يختص بهذه الصفات التي تحدثنا عنها فقط ؛ لأن صفات الحق تبارك وتعالى غير معلومة لنا بالكامل ، إذ إن هناك أسماء استأثر بها الحق عز وجل في علم الغيب عنده ، وهذه الأسماء تمثل صفات مجهولة بالنسبة لنا ، فقد يكون من بين هذه الصفات صفات أخرى ينفرد بها ، هذا فضلاً عن أنه تبارك وتعالى منفرد بجميع صفاته حتى تلك التي أشركنا معه فيها ، فلو أننا علمنا حقيقة الصفة لدى الله عز وجل ، والصفة عند مخلوقاته ، لقلنا : إن هذه صفة ، وهذه صفة أخرى.

خذ على سبيل المثال صفة وجود الله عز وجل.. ماذا تعني هذه الصفة؟

الإنسان له وجود ، ووجوده يبدأ منذ أن خلقه الله عز وجل ، وينتهي بموته ، ثم يعود إلى الوجود مرة أخرى يوم القيامة ، هذا عن وجود الإنسان.

أما وجود الحق تبارك وتعالى فهو وجود بلا بداية وبلا نهاية .. فهى صفة إذن يعجز العقل البشرى عن تخيلها ، فهل يستوى الوجود الحقيقى للحق جل وعلا بالوجود المُحْدَث للإنسان؟

خذ صفة القدرة ، وتصوَّرْ أقصى ما استطاع الإنسان أن يتوصل إليه بقدرته .. ماذا صنع؟

طائرة .. صاروخ .. سيارة .. نقل الصوت والصورة ..

كيف توصل الإنسان إلى كل ما توصل إليه من مخترعات؟

لقد توصل إلى ما توصل إليه مستخدماً إمكاناته العقلية .

مَنْ خلق عقل الإنسان بكل ما له من قدرة على الابتكار؟ الحق عز وجل هو الذى خلق عقل الإنسان بكامل قدراته .

لقد انتفت لدينا قدرة الإنسان ، واكتشفنا أنها مجرد صورة من صور قدرة الله عز وجل .. فهل من خلال هذا الفهم يصح لنا أن نقول : إننا شركاء لله عز وجل فى صفة القدرة؟

فالله إذن منفرد بصفة القدرة انفراداً مطلقاً رغم مشاركتنا المجازية أو الاسمية له فى هذه الصفة ، وهكذا شأن جميع الصفات .

وإذا كنا قد تحدثنا عن بعض الصفات التى يختص بها تبارك وتعالى فذلك لأنه قد أشركنا معه فى سائر الصفات ، وإن كان هذا الاشتراك شكلياً كما بيَّنا ، أما الصفات التى دار حولها الحديث فهى صفات له وحده جل وعلا ولا يشاركه فيها أحد .. لا على سبيل الحقيقة ، ولا على سبيل المجاز .

النور الإلهي الذي يضيء الدنيـــا والآخـــرة ، ويضيء القلوب المؤمنة . . هذا النور أراد الحق عز وجل أن يضرب لنا مثلاً له بشيء مادي محسوس ، فيقول عز وجل :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾ [النور]

كأن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف بتشبيه مُحَسٍّ ، أن مثل نوره كمشكاة .

والمشكاة هي (الطاقة) . . والطاقة فجوة في الحائط بالبيت الريفي ونحن نضع المصباح في هذه الطاقة .

إذن : المصباح ليس في الحجرة كلها . . ولكن نوره مركز في هذه الطاقة فيكون قوياً في هذا الحيز الضيق . . ولكن المصباح في زجاجة تحفظه من الهواء من كل جانب . . فيكون الضوء أقـوى . . صافياً لا دخان فيه . . كما أن الزجاج يعكس الأشعة فيزيد تركيزه . . والزجاجة غير عادية ولكنها كوكب دُرِّيّ . . أي : أنها مضيئة بذاتها وكأنها كوكب . . ووقودها من شجرة مباركة يملؤها النور لا شرقية ولا غربية . . أي : يملؤها النور من الوسط ويخرج صافياً . . والزيت مضيء بذاته دون أن تمسه نار . . فهي نور على نور . . أيكون جزء من هذه المشكاة (الطاقة) مظلماً ؟ أم تمتلئ بنور يبهر العيون؟

وهذا ليس نور الله تبارك وتعالى عن التشبيه والوصف ، ولكنه مثلٌ فقط لتقريب الصورة من الأذهان .. فكأن نور الله يضيء كل ركن وكل بقعة ولا يترك مكاناً مظلماً .. فهو نور على نور .

ولقد أراد أبو تمام أن يمدح الخليفة أحمد بن المعتصم ، وكانت العادة أن يُشبِّه الخليفة بالأشخاص البارزين ذوى الصفات الحسنة ، فقال :

إقدامُ عمرو فى سَماحةِ حاتمٍ فى حِلمِ أحنَفَ فى ذكاءِ إياسِ

وكل هؤلاء الذين ضرب بهم الشاعر المثل كانوا مشهورين بهذه الصفات .. فعمرو كان مشهوراً بالشجاعة ، وحاتم كان معروفاً بالسماحة والجود . وأحنف يُضرَب به المثل فى الحِلْم .. وإياس شعلة فى الذكاء .

وهنا قام أحد الحاضرين وقال : الأمير أكبر فى كل شىء ممن شبهته بهم .

فقال أبو تمام على الفور :

لا تُنكروا ضَربى له مَنْ دُونَهُ مثلاً شَروداً فى النَّدَى والباسِ

فاللهُ قد ضربَ الأقلَّ لنورهِ مثلاً من المشْكاةِ والنِّبراسِ

يقول الحق جل وعلا :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) ﴾ [الشورى]

ويتضح من هذه الآية الكريمة أن رؤية الله تبارك وتعالى ممتنعة فى الدنيا ، وقد عوقب اليهود حينما قرنوا إيمانهم برؤية الله عز وجل جهرة ، وفى ذلك يقول الحق جل جلاله :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ﴾ [البقرة]

تاب الله عليهم بعد عبادتهم للعجل ، ولكنهم عادوا مرة أخرى إلى عنادهم وماديتهم .. فهم يصرون على عبادة إله مادى .. إله يرونه ، ولكن الله عز وجل من عظمته أنه غيب لا تدركه الأبصار ، واقرأ قوله تعالى :

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾

[الأنعام]

فكون الله عز وجل فوق إدراك البشر ، فهذا من عظمته تبارك وتعالى ، ولكن اليهود الذين لا يؤمنون إلا بالشىء المادى المحس .. لا تتسع عقولهم ولا قلوبهم إلى أن الله سبحانه وتعالى فوق المادة وفوق الأبصار .. وهذه النظرة المادية نظرة حمقاء ، والله تبارك وتعالى قد لفتنا إلى قضية رؤيته جهراً فى الدنيا بقوله تعالى :

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات]

أي : أن الله جل جلاله وضع دليل القمة على وجود الله الذي لا تدركه الأبصار .. وضعه في نفس كل واحد منا ، وهي الروح الموجودة في الجسد .. والإنسان مخلوق من مادة نفخت فيها الروح فدبَّتْ فيها الحياة والحركة والحس .

إذن : كل ما في جسدك من حياة .. ليس راجعاً إلى المادة التي تراها أمامك .. وإنما يرجع إلى الروح التي لا تستطيع أن تدركها إلا بآثارها .. فإذا خرجت الروح ذهبت الحياة وأصبح الجسد رمة .. فإذا كانت هذه الروح في جسدك ، وهي التي تعطيك الحياة لا تستطيع أن تدركها مع أنها موجودة داخلك .. فكيف تريد أن تدرك الله سبحانه وتعالى .. كان يجب أولاً أن تسأل الله عز وجل أن يجعلك تدرك الروح في جسدك ، ولكن الله تبارك وتعالى أخبرنا أن الروح من أمره .

واقرأ قوله جل وعلا :

﴿ ويسألونك عن الرُّوح قل الرُّوحُ من أمْر ربِّي وما أُوتيتُم مِّن العلم إلاَّ قليلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء]

إذا كانت روحك وهي مخلوقة من مخلوقات الله عز وجل لا تدركها ، فكيف تطمع أن ترى خالقها .. وانظر إلى دقة الأداء القرآني في قوله تعالى :

﴿ حتَّىٰ نرى الله جهْرةً .. (٥٥) ﴾ [البقرة]

فكلمة «ترى» تُطلق ويُراد بها العلم مثلاً ، كما في قوله تعالى :

﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا (٤٣) ﴾

[الفرقان]

أي: أعلمت.. ولذلك جاءت كلمة (جهرة) لتنفي العلم فقط، وتطالب بالرؤية مجهورة واضحة يدركونها بحواسهم، وهذا دليل على أنهم متمسكون بالمادية، والتي هي قوام حياتهم.. نقول لهؤلاء: إن سؤالكم يتسم بالغباء؛ لأنكم طلبتم طلباً وأنتم تعلمون أنه محال قبل أن تطلبوه، وكأنكم تطلبون باختياركم أن يحل عليكم غضب وسخط من الله عز وجل.

والذي شجع اليهود على أن يقولوا ما قالوا.. طلب موسى عليه السلام من الله سبحانه وتعالى أن يراه.. واقرأ قوله جل وعلا:

﴿ قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا.. (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

فلا بد أن نعرف أن قضية رؤية الله في الدنيا محسومة.. وأنه لا سبيل إلى ذلك. فالإنسان في جسده البشري.. له قوانين في إدراكاته.. ولكن يوم القيامة سنكون خلقاً جديداً بقوانين تختلف.. ففي الدنيا لا بد أن نخرج مخلفات الطعام من أجسادنا.. وفي الآخرة لا مخلفات.. وفي الدنيا يحكمنا الزمن، وفي الآخرة لا زمن.. إذ يظل الإنسان شاباً دائماً.

إذن: فهناك تغيير، المقاييس هنا غير المقاييس يوم القيامة.. في الدنيا بجسدك وإعدادك لا يمكن أن ترى الله.. وفي الآخرة يسمح

إعدادك وجسدك بأن يتجلى عليك الله سبحانه وتعالى ، وهذا قمة النعيم فى الآخرة .. أنت الآن تعيش فى آثار قدرة الله ، وفى الآخرة تعيش عيشة الناظر إلى الله تبارك وتعالى . وفى ذلك يقول الحق جل وعلا :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

والإنسان فى الدنيا قد اخترع آلات مكّنته من أن يرى ما لا يراه بعينه المجردة ، يرى الأشياء الدقيقة بواسطة «الميكروسكوب» والأشياء البعيدة بواسطة «التلسكوب» .. فإذا كان عمل الإنسان فى الدنيا جعله يبصر ما لم يكن يبصره .. فما بالك بقدرة الله فى الآخرة؟

وإذا كان الإنسان عندما يضعف نظره يطلب منه الطبيب استعمال نظارة .. فإذا ذهب إلى طبيب أكثر مهارة ، أجرى له عملية جراحية فى عينه يستغنى بها عن النظارة ويرى بدونها .. فما بالكم بإعداد الحق للخلق ، وبقدرته التى لا حدود لها فى أن يعيد خلق العين بحيث تستطيع أن تتمتع بوجهه الكريم.

ولقد حسم الله تبارك وتعالى المسألة مع موسى عليه السلام بأن أراه العجز البشرى ؛ لأن الجبل بقوته وجبروته لم يستطع احتمال نور الله عز وجل فجعله دكاً ..

وكأن الله يريد أن يُفهم موسى أن الله تبارك وتعالى قد حجب عنه رؤيته رحمة منه ؛ لأنه إذا كان هذا قد حدث للجبل حينما تجلى عليه الله عز وجل ، فماذا كان يمكن أن يحدث بالنسبة لموسى إذا كان عليه السلام قد صعق برؤية المتجلَّى عليه ، فكيف لو رأى المتجلِّى سبحانه ؟

وقوم موسى حينما طلبوا أن يروا الله جهرة أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ، والصاعقة إما نار ، وإما عذاب ينزل .. المهم أنه بلاء نعمهم على طلب رؤية الله عز وجل جهرة فى الدنيا ، وهو طلب - كما قلنا - مرفوض ؛ لأن رؤية الله تبارك وتعالى فى الدنيا ممتنعة .

يقول الحق جلَّ وعلا:

﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم (١١٤) ﴾ [البقرة]

لقد بيَّن لنا الحق عز وجل موقف اليهود والنصارى والمشركين من بعضهم البعض ومن الإسلام، وكيف أن هذه الطوائف تواجه الإسلام بعداء، ويواجه بعضها البعض باتهامات.. فكل طائفة منها تتهم الأخرى بأنها على باطل، أراد أن يحذرهم تبارك وتعالى من الحرب ضد الإسلام ومحاربة هذا الدين فقال:

﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه .. (١١٤) ﴾ [البقرة]

مساجد الله التي تذكره فيها بأسمائه الحسنى والتي تسجد له فيها.. والسجود علامة الخضوع، وعلامة العبودية كما بيَّنا.. فأنت تضع أشرف شيء فيك وهو وجهك على الأرض، خضوعاً لله وخشوعاً له.

قبل الإسلام كان لا يمكن أن يصلي أتباع أي دين إلا في مكان خاص بدينهم، مكان مخصص لا تجوز الصلاة إلا فيه.. ثم جاء الله بالإسلام فجعل الأرض كلها مسجداً، وجعلها طهوراً.. وذلك توسيع على عباد الله في مكان التقائهم بربهم، وفي أماكن عبادتهم له، حتى يمكن أن تلتقي بالله في أي مكان وفي أي زمان.

إنه سبحانه لا يحدد لك مكاناً معيناً لا تصح الصلاة إلا فيه . . وأنت إذا أردت أن تصلى ركعتين لله بخلاف الفرض . . مثل صلاة الشكر أو صلاة الاستخارة أو صلاة الخوف ، أو أى صلاة من السنن التى علمها لنا رسول الله ﷺ ، فإنك تستطيع أن تؤديها فى أى وقت ، فكأنك تلتقى بالله سبحانه وتعالى أين ومتى تحب .

فالحق سبحانه وتعالى قد وسَّع من دائرة التقائنا به سبحانه .

ورسول الله ﷺ يقول : «أعطيت خمساً لم يُعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلى : نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً . . فأيُّما رجل أدركته الصلاة فليصلِّ . . وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد من قبلى . . وأعطيت الشفاعة . . وكان النبى يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة» .

ولكن لماذا خَصَّ الله عز وجل أمة محمد بهذه النعمة؟

لقد خصهم بها ؛ لأن الإسلام جاء على موعد مع ارتقاءات العقل وطموحات البشر . . كلما ارتقى العقل فى علوم الدنيا كشف قوانين وتغلب على عقبات . . وجاء بمبتكرات ومخترعات تفتن عقول الناس . . وتجذبهم بعيداً عن الدين ، فيعبدون الأسباب بدلاً من خالق الأسباب .

يريد الحق تبارك وتعالى أن يجعل عبادتهم له ميسَّرة دائماً حتى يعصمهم من هذه الفتنة . . فإذا وجبت عليك صلاة مفروضة ، أو أردت أن تصلى ركعتين لله عز وجل شكراً على نعمة أنعمها

عليك ، أو استخارة له فى أمر من الأمور، أو غير ذلك، فتصلى فى المكان الذى أنت فيه؛ لأن الأرض صارت لنا مسجداً وطهوراً.. فلا تضطر إلى أن تذهب إلى مكان بعيد أو الطريق إليه شاق، فيسبك هذا شكر الله والسجود له.

ولقد تحدث الحق جل وعلا عن المساجد فى آية أخرى ، فقال:

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ .. (٣٦) ﴾ [النور]

ما هى هذه البيوت التى يرى فيها الناس نور الله تبارك وتعالى؟

إنها المساجد.. فعمار المساجد وزوارها المثابرون على الصلاة فيها هم الذين يرون نور الله.. فإذا جاء قوم يجترئون عليها ، ويمنعون ذكر اسم الله فيها ، فمعنى ذلك أن المؤمنين القائمين على هذه المساجد ضعفاء الإيمان فتجرأ عليهم أعداؤهم.. ولو كانوا أقوياء ما كان يجرؤ عدوهم على أن يمنع ذكر اسم الله فى مساجد الله.. أو أن يسعى فى خرابها فتهدم ولا تقام فيها صلاة.

وقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ..(١١٤) ﴾ [البقرة]

أى: أن هؤلاء ما كان يصح لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين أن يفتك بهم المؤمنون من أصحاب المسجد والمصلين فيه .. فإذا كانوا قد دخلوا غير خائفين، فمعنى ذلك أن وازع الإيمان فى نفوس المؤمنين قد ضعف.

وقوله تعالى: ﴿ومن أظلم﴾. معناه: لا يوجد أحد أظلم من ذلك الذى يمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه.. فهذا هو الظلم العظيم.

وقوله تعالى: ﴿وسعى فى خرابها﴾ أى: فى إزالتها أو بقائها غير صالحة لأداء العبادة..

ويحدد الحق سبحانه وتعالى جزاء هؤلاء فى ختام الآية القرآنية فيقول جل وعلا:

﴿ لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ..(١١٤) ﴾
[البقرة]

أى: لن يتركهم الله فى الدنيا ولا فى الآخرة.. بل يصيبهم فى الدنيا خزى.. والخزى هو الشىء القبيح الذى تكره أن يراك الناس عليه.. وهذا يوضح مدى غيرة الله عز وجل على بيوته.

وانظر إلى ما أذاقه الله ليهود المدينة الذين كانوا يسعون فى خراب مساجد الله .. لقد أخذت أموالهم وطُردوا من ديارهم.

أما في الآخرة فإن أعداء الله سيحاسبون حساباً عسيراً لتطاولهم على مساجد الله ، وأيضاً هؤلاء المنسوبون إلى الإسلام الذين سكتوا على هذا ، وتخاذلوا عن نصرة دين الله والدفاع عن بيوته ، سيكون لهم عذاب أليم على ما قصَّروا في حق الله تبارك وتعالى ، وفي حق بيوته التي يُذكَر فيها اسمه .

وإذا تأملت الآيتين السابقتين نجد أن الله عز وجل قد اختار من بين صور العبادة (ذكر اسم الله) رغم أن عبادة الله في المسجد متنوعة . فنحن نقف ونركع ونسجد ونقرأ القرآن وغير ذلك كثير .. فحين يختار الله عز وجل من بين هذه الصور (ذكر اسم الله) فهذا لَفْت إلى أهمية وقيمة ذكره بأسمائه الحسنى .. فقد قال تبارك وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ .. (١١٤) ﴾ [البقرة]

كما قال :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ .. (٣٦) ﴾ [النور]

والحق جلَّ وعلا لم يحدد أي اسم من أسمائه الحسنى في أيٍّ من الآيتين الكريمتين ، فكلمة اسم في الآيتين قد وردت عامة ، فتشمل جميع أسماء الله الحسنى .

كما أن تشديد العقاب على هؤلاء الذين يسعون إلى خراب المساجد وإلى منع اسم الله من الانطلاق من أفواه المؤمنين لهو خير دليل على أن الحق جل وعلا يحب أن نذكره بأسمائه الحسنى ، وأنه عز وجل شديد العقاب لمن أراد أن يمنع هذا الذكر في أي بيت من بيوته الطاهرة .

الحق سبحانه وتعالى لا يختص بمكان .. لأنه لا يحل في مكان .. إذ كيف يحل بمكان ، والمكان مخلوق من مخلوقاته عز وجل .. وهل يجوز أن يحل الخالق في المخلوق ، وقد كان الخالق ، ولم يكن هناك مخلوق على الإطلاق ، وفي هذا يقول تبارك وتعالى:

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥) ﴾ [البقرة]

فهو سبحانه وتعالى موجود في كل مكان دون أن يحل في مكان ، فأينما كنتم ستجدون الله مُقْبِلاً عليكم بالتجليات ..

وقوله تعالى: ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ..(١١٥) ﴾ [البقرة]

أي: هناك وجه الله .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ..(١١٥) ﴾ [البقرة]

أي: لا تضيقوا بمكان التقاءاتكم بربكم .. لأن الله واسع موجود في كل مكان في هذا الكون ، وفي خارج هذا الكون.

فإذا قال تبارك وتعالى:

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ..(١١٥) ﴾ [البقرة]

فهذا لا يعني تحديد جهة الشرق أو جهة الغرب فقط ، ولكنه يتعداها إلى كل الجهات شرقها وغربها .. شمالها وجنوبها .. والشمال الشرقي والجنوب الغربي ، وكل جهة تتجه إليها.

ولكن لماذا ذكرت الآية المشرق والمغرب فقط؟

لأن كل الجهات تتحدد بشروق الشمس وغروبها .. فهناك شمال شرقي ، وجنوب شرقي ، وشمال غربي ، وجنوب غربي .. كما أن الشرق والغرب معروفان بالفطرة عند الناس ، فلا تجد أحداً يجهل من أين تشرق الشمس ولا أين تغرب .. فأنت كل يوم ترى شروقاً وترى غروباً .

الله سبحانه وتعالى حين يقول : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ .. (١١٥) ﴾ [البقرة]

ليس معناها حصر الملكية لهاتين الجهتين ، ولكنه ما يُعرف بالاختصاص بالتقديم .. كما تقول : بالقلم كتبت ، وبالسيارة أتيت .. أي : أن الكتابة خصوص القلم ، والإتيان خصوص السيارة .. وهذا ما يُعرف بالاختصاص .. فهذا مختص بكذا ، وليس لغيره شيء فيه .

ولذلك فإن معنى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ .. أن الملكية لله سبحانه وتعالى لا يشاركه فيها أحد ..

وتغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ليس معناه أن الله تبارك وتعالى كان في بيت المقدس ، ثم انتقل إلى الكعبة !!

إن توحيد القبلة ليس معناه أكثر من أن يكون للمسلمين اتجاه واحد في الصلاة .. وذلك تدريب على توحيد الهدف .. فيجب أن تفرق بين اتجاه في الصلاة ، واتجاه في غير الصلاة .

الاتجاه في الصلاة يعني أن نتجه جميعاً إلى مكان محدد اختاره الله لنا لنتجه إليه في الصلاة ، فالناس في جميع أنحاء العالم تتجه إلى الكعبة . . والكعبة مكان واحد لا يتغير ، وإن كان اتجاهنا إليها هو الذي يتغير ، فواحد متجه شمالاً ، وواحد متجه جنوباً ، وواحد متجه شرقاً ، وواحد متجه غرباً . . كل منا يتجه اتجاهاً مختلفاً حسب البقعة التي يوجد عليها من الأرض . . ولكننا جميعا نتجه إلى الكعبة ، فرغم اختلاف وجهاتنا إلا أننا نلتقي على غاية واحدة ، وجهة واحدة . . الكعبة .

الله جل جلاله يريدنا أن نعرف أننا إذا قلنا : (ولله المشرق) فلا نظن أن المشرق اتجاه واحد؛ لأن كل مكان في الأرض له مشرق وله مغرب . . فإذا أشرقت الشمس في مكان فإنها تغرب في مكان آخر تشرق عندي وتغرب عند غيري . . وبعد ثانية تشرق عند قوم وتغرب عند قوم . . فالشرق والغرب لا ينتهيان من على سطح الكرة الأرضية . .

وبذلك يشمل قولنا : (المشرق والمغرب) جميع الاتجاهات التي يمكن أن ينظر إليها الإنسان .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ..(١١٥) ﴾ [البقرة]

أي : يتسع لكل ملكه ، لا يشغله شيء عن شيء ، ولذلك عندما سئل الإمام عليٌّ كرم الله وجهه : كيف يحاسب الله الناس جميعاً في وقت واحد؟ قال : كما يرزقهم جميعاً في وقت واحد . . لأن عمله سبحانه وتعالى : «كن فيكون» .

علاقة الله عز وجل بالكون هي علاقة الخالق بالمخلوق.. العابد بالمعبود.. يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (٥٦) ﴾ [الذاريات]

كما قال في الحديث القدسي:

«كنتُ كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف، فخلقتُ الخلق فبي عرفوني»

ولا تعارض بين الآية الكريمة والحديث القدسي؛ لأن العبادة تستلزم قبل أي شيء معرفة الله عز وجل حق المعرفة.

فالحق تبارك وتعالى هو الخالق الموصوف بصفات الكمال المطلق، والكون مخلوق له، والله جل وعلا هو المعبود الوحيد المستحق للعبادة، والكون بكل ما فيه عابد مسبّح بلا انقطاع.. الإنسان عابد، والحيوان عابد، والجماد عابد، والملائكة وغيرهم من المخلوقات - ما علمنا منها وما لم نعلم- عابدون.

ومن هذه المخلوقات ما هو مقهور على العبادة، ومنها ما أعطي حرية الاختيار في أن يعبد أو لا يعبد، أن يطيع أو يعصي.

وينبغي أن نلاحظ أن الذين يعبدون الله مقهورين على العبادة هم الذين اختاروا ذلك، والذين تحمّلوا الأمانة، فصار المجال مفتوحاً لهم أن يطيعوا أو يعصوا، هم أيضاً الذين اختاروا ذلك؛ لأن الله تبارك وتعالى خلق كونه كله على أساس الاختيار، ولكن هناك من اختاروا مرة واحدة.. فاختاروا أن يكونوا مقهورين.. وهناك من اختاروا أن

يعطيهم الله عز وجل الاختيار المتعدد ، بحيث أصبح لكلٍ منهم اختيار حرٌ بين الطاعة والمعصية طوال فترة حياته الدنيوية .

هناك الملائكة وهم يسبِّحون الله بالليل والنهار ، ولا يعصون الله ما أمرهم ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠) ﴾ [الأنبياء]

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

الملائكة هم الذين يُوكِّل الله سبحانه وتعالى إليهم ما يشاء في كونه . . فكل شيء في الكون مُوكَّل به مَلَكٌ حسبما يشاء الله جل جلاله . . منهم حملة العرش ، والملائكة المقربون إليه تبارك وتعالى ، والعالون ، وملائكة الموت ، والملائكة المكلَّفون بالإنسان كالحفظة الكرام ، والذين يكتبون ما يفعله البشر من أعمال وغيرهم وغيرهم .

فكل أجناس الكون قد اختارت القهر ، وصارت مقهورة باختيارها عدا الإنس والجن . . فإذا قرأنا قول الحق جل وعلا :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾

[الأحزاب]

نعرف أن السموات والأرض والجبال وغيرها من المخلوقات عُرِضَتْ عليها الأمانة أو حرية الاختيار . . عُرِضَ عليها أن تكون

مختارة قادرة على الطاعة وقادرة على المعصية .. ولكن أجناس الكون ما عدا الإنس والجن رفضت الاختيار وقالت: يا رب ، لا نقدر على أنفسنا .. ولا نقدر على حمل الأمانة ؛ فاجعلنا يا رب مقهورين.

ولولا أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بهذا فى كتابه العزيز .. لما عرفنا أن الأمانة عُرضت على السموات والأرض والجبال وغيرها ، وأنهم اختاروا أن يكونوا مقهورين ، ورفضوا حمل الأمانة التى حملها الإنسان .

ولكن ما هى الأمانة؟

الأمانة هى أن يأتمنك إنسان على شيء يودعه عندك ، وترده له عندما يطلبه بشرط ألاّ يكون هناك شيء مكتوب .. أو شهادة من الناس على أنه قد أودع عندك شيئاً .. فإذا أعطاك إنسان مثلاً ألف جنيه وأخذ إيصالاً أو شيكاً أو كمبيالة بالمبلغ ، فهذا لا يعتبر أمانة ، وإنما يكون إيداعاً عليه دليل .. وإذا أعطاك هذا الشخص هذا المبلغ ، ثم أشهد عدداً من الناس عليك ، فإن هذا لا يعتبر أمانة .. ولكنه إيداع عليه شهود .. أما إذا حدث هذا بينك وبينه دون شهود أو دليل فهذه هى الأمانة .. والله تبارك وتعالى عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال ، ولكنها رفضت .. لماذا؟

لأنها أحسّتْ بعدم قدرتها على الأداء ، ذلك أنه إذا أودع عندك شخص مبلغاً من المال كأمانة .. قد تصادفك ظروف صعبة .. فتمد يدك إليه ، وتأخذ منه على أمل أن ترده .. وقد تتصرف فى المبلغ كله ، وأنت تعتقد أنك ساعة الأداء قادر على رده .. ثم يأتى وقت الأداء فلا تجد المال ، وتكون قد ضيعت الأمانة .

ولكن الإنسان قبل أن يحمل الأمانة .. صوَّر له عقله أنه قادر على أن يؤديها عند طلب أدائها ، وأنه يستطيع أن يتبع منهج الله .. ويؤدى حق الله سبحانه وتعالى فى الصلاة والشكر والعبادة وكل ما كلَّفه الله به .. وعندما بدأ الرحلة ، وهى الحياة الدنيا أغواه الشيطان فانطلق فى المعصية ، وأشرك بالله ثم عبد الأحجار والشمس والقمر والنجوم والحيوان والإنسان وغير ذلك فأضاع الأمانة .. وعندما جاء الموت وهو وقت الأداء .. قابل الله ، ولم يستطع أن يؤدى الأمانة التى حملها .

إذن : السموات والأرض والجبال وغيرها من المخلوقات التى نظن أنها جماد لا يعقل ، اتضح أن لها حياة خاصة ، وإن كنا لا ندركها أو نشعر بها ، ولها عبادة وتسبيح لا ينقطع ، وإن كنا لا نفقه هذا التسبيح .. وقد أراد الحق جل وعلا أن يؤكد لنا هذه الحقيقة ، فقال تعالى :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) ﴾
[الحديد]

وكرَّر معنى هذه الآية فى سورة الصف :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) ﴾
[الصف]

كما كررها فى سورة الحشر :

﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) ﴾ [الحشر]

والآية تفيد العموم والشمول ، فكل شيء في السموات والأرض يسبح لله عز وجل ، وحتى لا يكون هناك تأويل ، ونجد من يقول لنا: إن المسبحين في هذه الآية الكريمة هم الكائنات العاقلة فقط .. قطع الحق جل وعلا الشك باليقين ، فقال تعالى :

﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

فليس هناك شيء إلا ويسبح لله عز وجل .. حيوان .. نبات .. جماد .. جميع المخلوقات لا تنقطع عن التسبيح ، الكون كله مخلوق عابد ، يُقرُّ بالفضل لهذا الخالق الموصوف بصفات الكمال المطلق ، والذي أنعم عليه حينما أوجده من العدم المطلق .. وأنعم عليه حينما وفر له مقومات الحياة التي لا يحيا بدونها .

وهذه العبادة لا تحقق نفعاً لله عز وجل ، فلا طاعتنا تزيد في ملكه ، ولا معصيتنا تنقص من شأنه ، فهو الغني عن عبادة الكون ، بل هو الغني عن وجود الكون بأكمله .. يقول تبارك وتعالى :

﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد (١٥) إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد (١٦) وما ذلك على الله بعزيز (١٧) ﴾

[فاطر]

كما أن هذه العبادة ليست إذلالاً ومناً على العباد ، وإنما هي أوامر ونواه ، الغرض منها الوصول بالإنسان إلى الرقي النفسي والبدني الذي يتناسب مع كونه خليفة الله في أرضه ، ويتناسب مع كونه المختص بالعقل دون سائر المخلوقات .

وفهم العلاقة بين الله عز وجل والكون على أنها علاقة الخالق بالمخلوق ، والعابد بالمعبود هو الفهم الصحيح الذي ينسجم مع الفطرة البشرية . . فإذا وجدت من يحاول العبث بهذه العلاقة بأن يحولها عن وضعها الصحيح فاعلم أنه : إما جاهل وإما ذو فطرة مريضة . . فالدنيا لها أهل . . وأهلها دوماً يلهثون خلف الشهوات . . فأعينهم لا ترى إلا المناصب ومصادر الثراء وغيرها من مطالب الدنيا . . ومثل هؤلاء يحرفون الكلم عن مواضعه دون أن يهتز لهم ضمير .

وهؤلاء لم ينقطعوا على مر التاريخ . . فمنهم من جعل لله أنداداً . . ومنهم من جعلوا له شركاء . . ومنهم من جعلوا له أولاداً . . كل هذه صور لمن أرادوا العبث بحقيقة العلاقة بين الخالق والمخلوق . . العابد والمعبود .

ذكرنا فيما سبق أن علاقة الله عز وجل بالكون هي علاقة الخالق - الموصوف بالكمال المطلق - بالمخلوق .. علاقة العابد بالمعبود .. فما موقف الزمن من هذه العلاقة؟

ظن البعض أن الزمن له وجود أزلي كوجود الله ، وأنه حقيقة غير مخلوقة ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى:

﴿ .. وإنَّ يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون (٤٧) ﴾ [الحج]

فتخيلوا أن الله عز وجل له زمن خاص به ، وإن كان يختلف عن الزمان الخاص بنا من حيث المقدار .. فكأن الزمن حقيقة لها وجودها مع الله منذ الأزل.

وهؤلاء نقول لهم: لقد أخطأتم في فهم الآية ، ولو كان هذا هو المعنى المقصود لكان هناك تعارض بين الآية السابقة وبين قوله تعالى:

﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة (٤) ﴾ [المعارج]

وبالفعل حاول المستشرقون استغلال هاتين الآيتين ، في الادعاء بأن هناك تناقضاً في القرآن الكريم .. إذ كيف يكون اليوم ألف سنة ، ويكون في نفس الوقت خمسين ألف سنة؟

نقول لهم: أنتم لم تفهموا اللفتة الإيمانية الكبيرة في هاتين الآيتين ، فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أنه خالق الزمن ، يخلق لكل حدث ما يناسبه ، فإذا أراد يوماً مدته ألف عام خلقه .. وإذا أراد

يوماً مدته مليون سنة خلقه.. فليس هناك قيود على قدرة الله جل جلاله.

إن الله تبارك وتعالى قد شاء أن يكون اليوم فى الأرض أربعاً وعشرين ساعة؛ ليناسب ذلك حياة الناس وطاقاتهم؛ لأن الجنس البشرى يناله التعب بعد ساعات.. فالإنسان لا يستطيع أن يعمل أكثر من ثمانى ساعات أو عشر، ثم بعد ذلك يصبح محتاجاً إلى الراحة، ليستطيع أن يجدد نشاطه ويبدأ العمل من جديد.

حتى أولئك الذين يعملون أربعاً وعشرين ساعة متواصلة لا يستطيعون تحدى طبيعة الخلق.. بل تجدهم محتاجين للنوم أربعاً وعشرين ساعة متواصلة.

إن الله سبحانه وتعالى - وهو خالق الإنسان وصانعه - جعل له ليلاً يوازى عدد ساعات حاجته إلى الراحة ويزيد قليلاً.. وجعل له نهاراً يوازى عدد ساعات حاجته إلى الراحة ويزيد قليلاً.

وهكذا ترى أن خلق الليل والنهار.. مناسب لقدرات الإنسان على العمل وحاجته إلى الراحة.. فكأن من تمام كمال الخلق تحديد عدد ساعات الليل والنهار بأربع وعشرين ساعة.

ولكن إذا كان من تمام الخلق أن يخلق الله سبحانه وتعالى يوماً مقداره ألف سنة، فإنه جل جلاله يخلقه ويوجده بكلمة (كُنْ) حتى يناسب ذلك اليوم المهام التى خُلق من أجلها.. والأحداث التى ستقع

فيه ، فإذا كنا محتاجين إلى فترة زمنية تستغرق أحداثاً تحتاج إلى يوم مقداره خمسون ألف سنة ، خلق الله تبارك وتعالى لها يوماً مقداره خمسون ألف سنة .. فإن كنا محتاجين إلى مليون سنة من الأحداث .. خلق لها الحق جل وعلا اليوم الذى يَسَعُها .. بحيث يستمر اليوم مليون سنة .

أحصى الشيء في اللغة أي: عَدَّهُ ، ولكن الحق جل وعلا استخدم هذا الفعل بمعنى أكثر اتساعاً .. فلم يستخدمه بمعنى العدّ فقط ، وإنما بمعنى العدّ مع الحفظ والإدراك لمفردات المعدود .. ويتضح ذلك من قوله تعالى:

﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد (٦) ﴾ [المجادلة]

فتجد أن الإحصاء في هذه الآية يشمل العد ، كما يشمل مقابل النسيان وهو الحفظ ..

أي: أن الله عز وجل قد عد عليهم أعمالهم وحفظها فلم ينس منها شيئاً .. كما استخدم الحق تبارك وتعالى هذا الفعل بمعنى العد وإدراك المعدود ، كما في قوله جل وعلا:

﴿ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .. (٤٩) ﴾ [الكهف]

فهو لا يحصر ويعد كل شيء فقط ، بل يحصره ويعده ، وهو مُدرك لكميّته وقدره .. فهذه صغيرة وهذه كبيرة ، وهذه ثوابها كذا ، وهذه إثمها كذا .. ومنه قوله تعالى:

﴿ وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

فنعم الله تبارك وتعالى لا تُحصَى ؛ لأنكم وإن أحصيتموها عدداً - وهذا مستحيل - فإنكم لن تستطيعوا تقديرها حق قدرها .. فأنتم لا تعلمون حقيقة هذه النعم كما يعلمها الحق جل وعلا .. فإذا عُدنا

إلى حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام: «إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مَنْ أحصاها دخل الجنة».

وتسأل عن معنى إحصاء الأسماء الحسنى فى هذا الحديث؟؟

فإننا نقول: إن إحصاء الأسماء الحسنى يعنى حفظها مع فهم معناها والتخلُّق بآدابها.. فيجب على كل مسلم أن يتخلق بخلق الرحمة فيكون عوناً للضعيف والمريض والصغير وكل ذى حاجة.. وأن يكون مصدر سلم لكل من حوله ، فلا يكون سبباً لإثارة المشاكل والفتن بين الناس.. وأن يكون مصدر أمن لهم من كل فزع.. وأن يكون عدلاً فى كل أفعاله وأحكامه.. وأن يكون حليماً كريماً يجود قدر ما استطاع على الفقراء والمساكين.. وأن يعفو عَمَّنْ ظلمه ويدفع السيئة بالحسنة.. وأن يكون نافعاً لغيره كنفعه لنفسه.. وأن يكون معيناً للناس على نهج طريق الهداية.. وأن يتحلى بالصبر على الجد والبلاء.. فيجب على المسلم ألا يترك صفة من صفات الحق جل وعلا يمكن له أن يتخلق بها إلا فعل قدر استطاعته.

أسماء الله توقيفية لا مجال للعقل فيها وقد يتعقلها العقل الراقى ؛ لأن الله مُنزَّه عن كل نقص ، وله الجمال كله والجلال كله .

من هذا المنطلق أن يعلم العقل أن الكمال كامنٌ فى الكامل ، والجلال كامن فى الجليل .

وعلى كُلٍّ فيجب الوقوف فيها على ما جاء من الكتاب والسنة ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) ﴾ [الإسراء]

ويقتضى الإيمان بأسماء الله الحسنى الإيمان بالاسم ، وبما يدل عليه من المعانى والانفعال بها ، والتخلق بأخلاقها ، فنؤمن بأن الله رحيم ذو رحمة ، ورحمته وسعت كل شىء ، قدير ذو قدرة وهو القادر على كل شىء .

غفور ذو مغفرة يغفر الذنوب جميعاً ويعفو عن السيئات .

وهذه الأسماء ، منها : ما يرجع إلى نفس الذات ، كقولك : ذات وموجود وشىء .

ومنها : ما يرجع إلى صفات المعانى كالعليم والقدير والسميع .

والثالث : ما يرجع إلى أفعاله نحو الخالق والرازق .

والرابع : ما يرجع إلى التنزيه كالقدوس والسلام .

والخامس : ما يدل على جملة أوصاف مثل المجيد والعظيم والصمد ، فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة .

ومنه : رب العرش المجيد صفة للعرش لسعته وعظمته وشرفه ، وبالتأمل قد نسأل أنفسنا سؤالاً : كيف جاء هذا الاسم بطلب الصلاة على رسوله ؟

إنه في مقام طلب المزيد والتعرُّض لسعة العطاء وكثرة دوامه .

السادس : صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر ، وذلك قدر زائد على مُفْرديْهما مثل : الغنى . الحميد . العفوّ . القدير . المجيد . وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة فى القرآن . فإن الغنى صفة كمال . والحمد كذلك ، واجتماع الغنى مع الحمْد كمال آخر فله ثناء من غناه ، وثناء من حمده ، وثناء من اجتماعهما .

وكذلك العفُوّ القدير ، والحميد المجيد ، والعزيز الحكيم .

أما صفات السلب فلا تدخل فى أوصافه تعالى ، إلا أن تكون متضمنة لثبوت كالأحد المتضمن انفراده بالربوبية ، والألوهية ، والسلام المتضمن لبراءته من كل نقص .

وللأسماء الحسنى دلالات : دلالة مطابقة إذا فسَّرنا الاسم بجميع مدلوله ، ودلالة تضمُّن إذا فسَّرناه ببعض مدلوله ، ودلالة التزام إذا استدللنا به على غيره من الأسماء التى يتوقف هذا الاسم عليها .

فمثلاً : الرحمن دلالة على الرحمة ، والذات دلالة مطابقة ، وعلى أحدهما دلالة تضمن لأنها داخلة في الضمن ، ودلالة على الأسماء التي لا توجد الرحمة إلا بثبوتها ، كالحياة والعلم والإرادة والقدرة ونحوها .

ودلالة التزام ، وهذه الأخيرة تحتاج إلى قوة فكر وتأمل ، فالطريق إلى معرفتها يحتاج إلى فَهْم اللفظ وما يدل عليه من المعاني فتنفعل به ، والانفعال به توحيد ، وفي توحيده فكر ، وفي الفكر ذكر ، ولذكر الله أكبر .

يقول ابن القيم ، وهو من أهل المعارف عن قوله الحق :

﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (١٨٠) ﴾ [الأعراف]

والإلحاد في أسمائه والعدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها . . وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادته « لحد » فمنه اللحد ، وهو الشق في جانب القبر ، ومنه الملحد في الدين المائل عن الحق .

فالعرب كانت تُسَمِّي الأصنام اللات من الألوهية ، العزى من العزيز ، وتسميتهم الصنم إليها ، وهذا إلحاد فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم الباطلة .

وفي قول اليهود :

﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ..(٦٤) ﴾ [المائدة]

وفي قولهم :

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ..(١٨١) ﴾ [آل عمران]

وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته ، ومنها تشبيه صفاته بصفات خلقه ، فكل هذا إلحاد وميل عن الاشتقاق .

يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾ [الكهف]

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧) ﴾ [لقمان]

فكل اسم له سرُّه ، وله عطاؤه ، وله إشراقاته ، والأسماء كما ذكرت في كتاب الله :

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفاتحة : ١

١-٣ نأخذ منها : ﴿ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) ﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ [الفاتحة]

٤- الرب : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ [الفاتحة]

٥- الملك : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) ﴾ [الفاتحة]

٦- المحيط : ﴿ .. وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) ﴾ [البقرة]

٧- القدير : ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾ [البقرة]

٨- العليم : ﴿ .. فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) ﴾ [البقرة]

٩- الحكيم : ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم (٣٢) ﴾ [البقرة]

١٠- التواب : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم (٣٧) ﴾ [البقرة]

١١- البارىء : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم .. (٥٤) ﴾ [البقرة]

١٢- البصير : ﴿ .. والله بصير بما يعملون (٩٦) ﴾ [البقرة]

١٣- الولى : ﴿ .. وهو الولي الحميد (٢٨) ﴾ [الشورى]

﴿ ..وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير (١٠٧) ﴾ [البقرة]

١٤- النصير : ﴿ .. وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير (١٠٧) ﴾ [البقرة]

١٥- الواسع : ﴿ .. إن الله واسع عليم (١١٥) ﴾ [البقرة]

١٦- البديع : ﴿ بديع السموات والأرض (١١٧) ﴾ [البقرة]

١٧- السميع : ﴿ .. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم (١٢٧) ﴾ [البقرة]

١٨- العزيز : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم (١٢٩) ﴾ [البقرة]

١٩- الإله :   ٢٠- الواحد :

﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون (١٣٣) ﴾ [البقرة]

٢١- الرءوف : ﴿ .. إن الله بالناس لرءوف رحيم (١٤٣) ﴾ [البقرة]

٢٢- الشاكر : ﴿ .. ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم (١٥٨) ﴾ [البقرة]

٢٣- الغفور : ﴿ .. إن الله غفور رحيم (١٧٣) ﴾ [البقرة]

٢٤- القريب : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب .. (١٨٦) ﴾ [البقرة]

٢٥- الحليم : ﴿ .. والله غفور حليم (٢٢٥) ﴾ [البقرة]

٢٦- الخبير : ﴿ .. والله بما تعملون خبير (٢٣٤) ﴾ [البقرة]

٢٧- الحى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

٢٨- القيوم : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

٢٩- العلى : ﴿ .. وهو العلي العظيم (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

٣٠- العظيم : ﴿ .. وهو العلي العظيم (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

٣١- الغني : ﴿.. والله غني حليم (٢٦٣)﴾ [البقرة]

٣٢- الحميد : ﴿.. واعلموا أن الله غني حميد (٢٦٧)﴾ [البقرة]

٣٣- الوهاب : ﴿.. وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب (٨)﴾ [آل عمران]

٣٤- الجامع : ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه .. (٩)﴾ [آل عمران]

٣٥- القائم : ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت .. (٣٣)﴾ [الرعد]

٣٦- مالك الملك : ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ..(٢٦)﴾ [آل عمران]

٣٧- الشهيد : ﴿..والله شهيد على ما تعملون (٩٨)﴾ [آل عمران]

٣٨- الناصر : ﴿بل الله مولاكم وهو خير الناصرين (١٥٠)﴾ [آل عمران]

٣٩- الوكيل : ﴿.. فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل (١٧٣)﴾ [آل عمران]

٤٠- الرقيب : ﴿..إن الله كان عليكم رقيبا (١)﴾ [النساء]

٤١- الحسيب : ﴿.. وكفى بالله حسيبا (٦)﴾ [النساء]

٤٢- الكبير : ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) ﴾ [النساء]

٤٣- العفو : ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣) ﴾ [النساء]

٤٤- المقيت : ﴿ .. وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا (٨٥) ﴾ [النساء]

٤٥- الرزاق : ﴿ .. وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) ﴾ [المائدة]

٤٦- الفاطر : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٤) ﴾ [الأنعام]

٤٧- القاهر : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) ﴾ [الأنعام]

٤٨- القادر : ﴿ .. قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) ﴾ [الأنعام]

٤٩- الحق : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ .. (٦٢) ﴾ [الأنعام]

٥٠- عالم الغيب والشهادة : ﴿ .. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣) ﴾ [الأنعام]

٥١- الخالق : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ .. (١٠٢) ﴾ [الأنعام]

٥٢- اللطيف : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ .. (١٠٣) ﴾ [الأنعام]

٥٣- الحكم : ﴿ أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا .. (١١٤) ﴾ [الأنعام]

٥٤- الصادق : ﴿ .. ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون (١٤٦) ﴾ [الأنعام]

٥٥- الولى : ﴿ .. فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير (٤٠) ﴾ [الأنفال]

٥٦- القوى : ﴿ .. إن الله قوي شديد العقاب (٥٢) ﴾ [الأنفال]

٥٧- الحفيظ : ﴿ .. إن ربي على كل شيء حفيظ (٥٧) ﴾ [هود]

٥٨- المجيب : ﴿ .. فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب (٦١) ﴾ [هود]

٥٩- المجيد : ﴿ .. رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد (٧٣) ﴾ [هود]

٦٠- الودود : ﴿ .. إن ربي رحيم ودود (٩٠) ﴾ [هود]

٦١- المستعان : ﴿ .. فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون (١٨) ﴾ [يوسف]

٦٢- الغالب : ﴿ .. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٢١) ﴾ [يوسف]

٦٣- القهار : ﴿ .. أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار (٣٩) ﴾ [يوسف]

٦٤- الحافظ : ﴿ .. فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين (٦٤) ﴾ [يوسف]

٦٥- المتعال : ﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال (٩) ﴾ [الرعد]

٦٦- الوالى : ﴿ .. وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال (١١) ﴾ [الرعد]

٦٧- الشديد : ﴿ .. وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال (١٣) ﴾ [الرعد]

« لطيفة »

هذا الاسم الحسن ذكر فى رواية زهير « من أسرار القرآن العظيم أن ينزل هذا الاسم (الشديد) فى الآية الثالثة عشرة من السورة الثالثة عشرة من الجزء الثالث عشر من الكتاب الكريم ، ذلك بأن سورة الرعد هى السورة الثالثة عشرة حسب الترتيب فى المصحف »

٦٨- الوارث : ﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون (٢٣) ﴾ [الحجر]

٦٩- الخلاق : ﴿ إن ربك هو الخلاق العليم (٨٦) ﴾ [الحجر]

٧٠- الكفيل : ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلا .. (٩١) ﴾ [النحل]

٧١- المقتدر : ﴿ .. وكان الله على كل شيء مقتدرا (٤٥) ﴾ [الكهف]

٧٢- الحفي : ﴿ قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا (٤٧) ﴾ [مريم]

٧٣- الغفار : ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى (٨٢) ﴾ [طه]

٧٤- الهادى : ﴿ .. وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم (٥٤) ﴾ [الحج]

٧٥- المبين : ﴿ .. ويعلمون أن الله هو الحق المبين (٢٥) ﴾ [النور]

٧٦- النور : ﴿ الله نور السموات والأرض .. (٣٥) ﴾ [النور]

٧٧- الكريم : ﴿ .. ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم (٤٠) ﴾ [النمل]

٧٨- المنتقم : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون (٢٢) ﴾ [السجدة]

٧٩- الفتاح : ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم (٢٦) ﴾ [سبأ]

٨٠- الشكور : ﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور (٣٠) ﴾ [فاطر]

٨١- الكافي : ﴿ أليس الله بكاف عبده .. (٣٦) ﴾ [الزمر]

٨٢- الغافر : ﴿ غافر الذنب .. (٣) ﴾ [غافر]

٨٣- رفيع الدرجات :

٨٤- ذو العرش : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) ﴾ [غافر]

٨٥- المحي : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير (٣٩) ﴾ [فصلت]

٨٦- الرزاق : ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين (٥٨) ﴾ [الذاريات]

٨٧- ذو القوة :

٨٨- المتين :

٨٩- البر : ﴿ إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم (٢٨) ﴾ [الطور]

٩٠- المليك : ﴿ في مقعد صدق عند مليك مقتدر (٥٥) ﴾ [القمر]

٩١- ذو الجلال والإكرام : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (٢٧) ﴾ [الرحمن]

٩٢- الأول :

٩٣- الآخر ٩٤- الظاهر ٩٥- الباطن

﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) ﴾
[الحديد]

٩٦- السلام ٩٧- المؤمن ٩٨ - المهيمن

٩٩- العزيز ١٠٠- الجبار ١٠١ - المتكبر :

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) ﴾ [الحشر]

١٠٢ - المصوِّر :

﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾ [الحشر]

١٠٣- الأعلى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) ﴾ [الأعلى]

١٠٤ - الأكرم : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) ﴾ [العلق]

١٠٥ - الأحد : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص]

١٠٦- الصمد :

﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾ [الإخلاص]

هذه الأسماء الشريفة والعظيمة التى ذُكرت بنصِّ القرآن ، وقال الرسول ﷺ فى حديثه أن العدد تسعة وتسعون ، وأجمع علماؤنا الآن أن الأسماء الحسنى مَدَدٌ بغير عدد عند عُرّف أهل الأسرار .

أما العدد المذكور فى الحديث فهو لأهل الاختيار حسب المقدور والقدرة مع المفهوم ، وعند التجلّى يكون المدُد بغير عددٍ .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) ﴾ [الأعراف]

ويقول الحق : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ .. (١١٠) ﴾ [الإسراء]

ويقول جل جلاله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (٨) ﴾ [طه]

ويقول الحق : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ .. (٢٤) ﴾ [الحشر]

والحسنى مؤنث الأحسن ، أي لله تعالى أحسن الأسماء ، وأجلها وأعظمها وأشرفها لاشتمالها على معاني التقديس والتعظيم والتمجيد ، وهي أحسن المعاني وأشرفها ، وعلى صفات الجمال والجلال لله رب العالمين .

وقد سمَّى الله تعالى بها نفسه ، وأمر أن يُدْعى بها ويُسمَّى ، ونهى أن يُدعى ويُسمَّى بغيرها مما لم يَرِد في الشرع إطلاقه عليه تعالى ، مثل : يا أبيض الوجه ، يا سخي ، يا عارف ، يا شجاع . ونحو ذلك فيعتبر هذا إلحاداً في أسمائه وميلاً وانحرافاً في حقيقته .

فمن أسمائه تعالى ما يستحقه بحقائقه كالحي قبل كل شيء ، والباقي بعد كل شيء ، والقادر على كل شيء ، والعليم بكل شيء ، والواحد ليس كمثله شيء .

ومنها : ما تستحسنه الألسن ، وتستقر معه القلوب ، كالغفور والشكور والحليم والرحيم .

ومنها : ما يوجب التخلق بها ، كالعفو .

ومنها : ما يُوجب مراقبة الأحوال كالسميع والبصير .

ومنها : ما يوجب الإجلال كالعظيم والجبار والمتكبر ، والدعاء هو استدعاء العبد ربه العناية واستمداده إياه طلباً للعون ، وهو سمة العبودية لله الواحد ، ومظهر الاحتياج والافتقار إليه ، والاعتراف بالبراءة من الحول والقوة إلا لله العزيز الجبار .

وهو أعظم مقامات العبادة لله تعالى .

قال تعالى : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعاً وخفية** .. (٥٥) ﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿ **واسألوا الله من فضله** .. (٣٢) ﴾ [النساء]

وقال رسول الله ﷺ : « ما من مؤمن ينصب وجهه لله ، يسأله مسألة إلا أعطاه الله إياها ، إما عجّلها له في الدنيا ، وإما ادخرها له في الآخرة » وقال أيضاً ﷺ : « الدعاء مُخ العبادة » .

والدعاء في كل حال ووقت يحتاج إلى الإخلاص ، فهو الذي يكشف السوء ، ويجيب المضطر ، ويدفع البلاء ، ويمنح الخيرات .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون (١٨٦) ﴾ [البقرة]

ويُدعى تعالى بأسمائه الحسنى ، كما قال تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها .. (١٨٠) ﴾ [الأعراف]

والله سميع الدعاء ، وقد ورد الدعاء في القرآن الكريم في غير موضع ، يقول الحق :

﴿ .. ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار (٢٠١) ﴾ [البقرة]

﴿ .. ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير (٤) ﴾ [الممتحنة]

﴿ .. ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين (٢٨٦) ﴾ [البقرة]

﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار (١٩٣) ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد (١٩٤) ﴾

[آل عمران]

للأسماء الحسنى فوائد لا تُحصى ، وأسرار لا تُعد ، فقد قال النبي ﷺ :

« مَنْ قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من سورة الحشر (لأن هذه الآيات بها ستة عشر اسماً مع قوله تعالى له الأسماء الحسنى) وكل الله له سبعين ألف ملك يُصلُّون عليه حتى يمسي ، وإذا مات في هذا اليوم مات شهيداً ، ومَنْ قال حين يُمسي كان بتلك المنزلة » .

وهذه الآيات الثلاث هي :

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾ [الحشر]

كلمة «إلاه» تعنى: معبود.. وهي اسم مشتق من الفعل (أله) بالفتح.. فكل ما اتخذه الناس معبوداً منذ القدم يصح أن يطلق عليه اسم (إلاه).

فمن الناس من اتخذ الشمس إلهاً.. أى: معبوداً، ومنهم من اتخذ النار إلهاً، ومنهم من اتخذ القمر إلهاً، ومنهم من اتخذ البقر إلهاً.

وكلمة (إلاه) قد تُطلق ويُراد بها معناها فقط... أي: (معبود) كما في قوله تعالى:

﴿ فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ..(٥٩) ﴾ [الأعراف]

وقوله تعالى:

﴿ الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت ..(١٥٨) ﴾ [الأعراف]

وقوله تعالى:

﴿ ..لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون (٣١) ﴾ [التوبة]

فالحق سبحانه وتعالى يؤكد في هذه الآيات أنه لا معبود إلا هو تبارك وتعالى.

وقد تُطلق كلمة (إلاه) ويُراد بها: الحق عز وجل، كما في قوله تعالى:

﴿أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب (٥)﴾ [ص]

فكلمة (إلاه) في هذه الآية تعني: «معبوداً» ، وفي نفس الوقت يُراد بها : الحق عز وجل.

فإذا انتقلنا إلى لفظ الجلالة (الله) . . هل هو لفظ مشتق من الفعل (أله) أم غير مشتق؟

قيل : إنه اسم مشتق من نفس الفعل (أله) ، وأنه هو نفسه الاسم المشتق (إلاه) ودخلت عليه الألف واللام وحُذفت الهمزة للتخفيف ، وقيل : إنه غير مشتق ، وإنما أطلقه الله عز وجل للدلالة على ذاته العلية.

ولكننا نقول : إن لفظ الجلالة (الله) سواء أكان مشتقاً أم غير مشتق ، فإنه عَلَمٌ على واجب الوجود . . أي : على الحق تبارك وتعالى بذاته وأسمائه وصفاته دون سواه من المعبودات الباطلة.

إن العَلَم إذا أطلق وأريد به مسمّى معيّناً . . فإنه (أي : العَلَم) ينحلّ عن معناه الأصلي ويصبح عَلَماً على مُسمَّاه . . كما إذا أطلقت على زنجية اسم (قمر) . . فالقمر بالنسبة لهذه الزنجية قد انحل عن معناه الأصلي ، وصار عَلَماً عليها.

فلفظ الجلالة (الله) ورد في القرآن الكريم حوالي ألفين وسبعمائة مرة لم يرد خلالها هذا اللفظ إلا للدلالة على ذات الحق جل وعلا ،

ولم يُستخدم للدلالة على أيّ معبود آخر من المعبودات الباطلة مثل: الشمس أو القمر أو النار أو البقر أو عيسى بن مريم.

كما أن الله تبارك وتعالى لم يستخدم لفظ الجلالة كوصف من الأوصاف مثل سائر الأسماء. وإنما استخدمه ليدل عليه بذاته وأسمائه الأخرى وصفاته دلالة علمية.

فإذا أراد أن يصف نفسه بوصف معين، أو ينسب إلى نفسه فعلاً معيّناً، أتى بلفظ الجلالة (الله) كعَلَم عليه، ثم ألحقه بالوصف أو الفعل الذي يريد.. كما تقول أنت: (أحمد وقور مهذب).

يقول الحق جل وعلا:

﴿.. وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)﴾ [البقرة]

ويقول جل وعلا:

﴿..وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)﴾ [البقرة]

ويقول عز وجل:

﴿.. فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧)﴾ [البقرة]

فلفظ الجلالة صار عَلَماً على الذات الإلهية العَليَّة.. عَلَماً على الحق - جل وعلا - ليدل عليه بذاته وأسمائه وصفاته دلالة علمية، ولا يستخدم للدلالة على غيره من المعبودات الباطلة، وهو الاسم الاعظم الذي حوى جميع كمالات صفاته، والذي ليس له فيه سمي أي: شريك في نفس الاسم.

والحق جل وعلا حين أنزل القرآن ، أنزله مقروناً باسم الله سبحانه وتعالى . . ولذلك حينما نتلوه فإننا نبدأ نفس البداية التي أرادها الله تبارك وتعالى . . وهي أن تكون البداية باسم الله.

إن أول الكلمات التي نطق بها الوحي لمحمد ﷺ كانت :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) ﴾ [العلق]

وهكذا كانت بداية نزول القرآن الكريم ليمارس مهمته في الكون هي باسم الله . . ونحن الآن نقرأ القرآن بادئين نفس البداية .

ولكن هل نحن مطالبون أن نبدأ فقط تلاوة القرآن باسم الله ؟ . . كلا . . إننا مطالبون أن نبدأ كل عمل باسم الله ؛ لأننا لا بد أن نحترم عطاء الله في كونه .

إنك حين تبدأ كل شيء بسم الله الرحمن الرحيم . . فإنك تجعل الله في جانبك يُعينك .

ومن رحمته تبارك وتعالى أنه علَّمنا أن نبدأ كل شيء باسمه تعالى ؛ لأن « الله » - كما قلنا - هو الاسم الجامع لكل صفات الكمال . . والفعل عادة يحتاج إلى صفات متعددة . .

فأنت حين تبدأ عملاً تحتاج إلى قدرة الله وإلى قوته وإلى عونه وإلى رحمته . . فلو أن الله سبحانه وتعالى لم يخبرنا بالاسم الجامع لكل الصفات لكان علينا أن نحدد الصفات التي نحتاج إليها ، كأن نقول باسم الله القوي ، وباسم الله الرزاق ، وباسم الله المجيب ، وباسم الله

القادر ، وباسم الله النافع .. إلى غير ذلك من الأسماء والصفات التى نريد أن نستعين بها .. ولكن الله تبارك وتعالى يجعلنا نقول : «بسم الله الرحمن الرحيم» .. الاسم الجامع لكل هذه الصفات .

على أننا لا بد أن نقف هنا عند الذين لا يبدأون أعمالهم باسم الله .. وإنما يريدون الجزاء المادى وحده .

إنسان غير مؤمن لا يبدأ عمله باسم الله ، وإنسان مؤمن يبدأ عمله كله وفى باله الله ، كلاهما يأخذ من الدنيا لأن الله رب للجميع ، له عطاء ربوبية لكل خلقه الذين استدعاهم للحياة ، ولكن الدنيا ليست هى الحياة الحقيقية للإنسان .. بل الحياة الحقيقية هى الآخرة .. الذى فى باله الدنيا وحدها يأخذ بقدر عطاء الله فى الدنيا والآخرة .. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) ﴾ [سبأ]

لأن المؤمن يحمد الله على نعمه فى الدنيا .. ثم يحمده عندما ينجيه من النار والعذاب ويدخله الجنة فى الآخرة .. فلله الحمد فى الدنيا والآخرة .

ورسول الله ﷺ قال :

«كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أقطع أو أبتر» .

ومعنى أقطع أى: مقطوع الذَّنَب أو الذيل.. أى: أنه عمل ناقص فيه شىء ضائع؛ لأنك حين لا تبدأ العمل باسم الله قد يصيبك الغرور والطغيان بأنك أنت الذى سخَّرت ما فى الكون ليخدمك وينفعل لك.

وحين لا تبدأ العمل ببسم الله.. فليس لك عليه جزاء فى الآخرة، فتكون قد أخذت عطاءه فى الدنيا، وبترت أو قطعت عطاءه فى الآخرة.. فإذا كنت تريد عطاء الدنيا والآخرة.. فأقبلْ على كل عمل باسم الله.. قبل أن تأكل قل: بسم الله الرحمن الرحيم؛ لأنه هو الذى خلق لك هذا الطعام ورزقك به..

عندما تدخل الامتحان قل: بسم الله الرحمن الرحيم فيعينك على النجاح..

عندما تدخل إلى بيتك قل: بسم الله؛ لأنه هو الذى يَسَّرَ لك هذا البيت..

عندما تتزوج قل: بسم الله لأنه هو الذى خلق هذه الزوجة وأباحها لك.

فى كل عمل تفعله ابدأه باسم الله؛ لأنها تمنعك من أى عمل يُغضب الله سبحانه وتعالى.. فأنت لا تستطيع أن تبدأ عملاً يغضب الله بِبِسم الله.

وكما ينبغى على المسلم المؤمن أن يجعل لسانه رطباً ببسم الله.. ينبغى عليه أيضاً أن يجعله رطباً بحمد الله عز وجل؛ لأنه تبارك وتعالى

محمود لذاته ومحمود لصفاته ، ومحمود لنعمه ، ومحمود لرحمته ، ومحمود لمنهجه ، ومحمود لقضائه ، الله سبحانه محمود قبل أن يخلق مَنْ يحمده . ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه جعل الشكر له فى كلمتين اثنتين هما : الحمد لله.

والعجيب أنك حين تشكر بشراً على جميل فعله تظل ساعات وساعات تعد كلمات الشكر والثناء ، وتحذف وتضيف وتأخذ رأى الناس حتى تصل إلى قصيدة أو خطاب ملىء بالثناء والشكر . ولكن الله سبحانه وتعالى - جَلَّتْ قدرته وعظمته ونعمه التى لا تحصى - علّمنا أن نشكره فى كلمتين اثنتين هما : «الحمد لله».

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه علّمنا صيغة الحمد ، فلو أنه تركها دون أن يحددها بكلمتين اثنتين لكان من الصعب على البشر أن يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا الله على هذا الكمال الإلهى . . فمهما أوتى الناس من بلاغة وقدرة على التعبير . فهم عاجزون عن أن يصلوا إلى صيغة الحمد التى تليق بجلال المنعم . . فكيف نحمد الله والعقل عاجز عن أن يدرك قدرته أو يحصى نعمه أو يحيط برحمته ، ورسول الله ﷺ أعطانا صورة العجز البشرى عن حمد كمال الألوهية ، فقال :

«لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك».

وكلمتا «الحمد لله» ، ساوى الله بهما بين البشر جميعاً ، فلو أنه ترك الحمد بلا تحديد ، لتفاوتت درجات الحمد بين الناس بتفاوت قدراتهم على التعبير.

فهذا أميٌّ - لا يقرأ ولا يكتب - لا يستطيع أن يجد الكلمات التى يحمد بها الله ، وهذا عالم له قدرة على التعبير يستطيع أن يأتى بصيغة الحمد بما أوتى من علم وبلاغة .

وهكذا تتفاوت درجات البشر فى الحمد طبقاً لقدرتهم فى منازل الدنيا ، ولكن الحق تبارك وتعالى شاء عدله أن يسوِّى بين عباده جميعاً فى صيغة الحمد له ، فيعلمنا فى أول كلماته فى القرآن الكريم أن نقول : (الحمد لله) ليعطى الفرصة لكل عبيده بحيث يستوى المتعلم وغير المتعلم فى عطاء الحمد ، ومَنْ أوتى البلاغة ومن لا يحسن الكلام .

ولذلك فإننا نحمد الله سبحانه وتعالى على أنه علَّمنا كيف نحمده ، وليظل الله دائماً محموداً ، ويظل العبد دائماً حامداً .

فالله سبحانه وتعالى قبل أن يخلقنا خلق لنا موجبات الحمد من النعم ، فخلق لنا السموات والأرض ، وأوجد لنا الماء والهواء ، ووضع فى الأرض أقواتها إلى يوم القيامة .

وهذه نعمة يستحق الحمد عليها ؛ لأنه جل جلاله جعل النعمة تسبق الوجود الإنسانى ، فعندما خلق الإنسان كانت النعمة موجودة تستقبله ، بل إن الله جل جلاله قبل أن يخلق آدم أبا البشر سبقته الجنة التى عاش فيها لا يتعب ولا يشقى ، فقد خُلق فوجد ما يأكله وما يشربه وما يقيم حياته وما يتمتع به موجوداً وجاهزاً ومعداً قبل الخلق .

وحينما نزل آدم وحواء إلى الأرض كانت النعمة قد سبقتهما ، فوجدا ما يأكلانه وما يشربانه ، وما يقيم حياتهما . .

ولو أن النعمة لم تسبق الوجود الإنسانى وخُلقت بعده لهلك الإنسان وهو ينتظر مجىء النعمة .

بل إن العطاء الإلهى للإنسان يعطيه النعمة بمجرد أن يُخلَق فى رحم أمه ، فيجد رحماً مستعداً لاستقباله وغذاء يكفيه طول مدة الحمل . . فإذا خرج إلى الدنيا يضع الله فى صدر أمه لبناً ينزل وقت أن يجوع ، ويمتنع وقت أن يشبع ، وينتهى تماماً عندما تتوقف فترة رضاعته . . ويجد أباً وأماً يوفران له مقومات حياته حتى يستطيع أن يعول نفسه . . وكل هذا يحدث قبل أن يصل الإنسان إلى مرحلة التكليف ، وقبل أن يستطيع أن ينطق : الحمد لله .

وهكذا نرى أن النعمة تسبق المنعَم عليه دائماً . فالإنسان حين يقول : (الحمد لله) فلأن موجبات الحمد - وهى النعمة - موجودة فى الكون قبل الوجود الإنسانى ، والله سبحانه وتعالى خلق لنا فى هذا الكون أشياء تعطى الإنسان بغير قدرة منه ودون خضوع له ، والإنسان عاجز عن أن يقدّم لنفسه هذه النعم التى يقدمها الحق تبارك وتعالى له بلا جهد .

فالشمس تعطى الدفء والحياة للأرض بلا مقابل وبلا فعل من البشر .

والمطر ينزل من السماء دون أن يكون لك جهد فيه أو قدرة على إنزاله .

والهواء موجود حولك فى كل مكان تتنفس منه دون جهد منك ولا قدرة .

والأرض تعطيك الثمر بمجرد أن تبذر فيها الحَبَّ وتسقيه .. فالزرع ينبت بقدرة الله .

والليل والنهار يتعاقبان حتى تستطيع أن تنام لترتاح ، وأن تسعى لحياتك .. لا أنت أتيت بضوء النهار ، ولا أنت الذى صنعت ظلمة الليل ، ولكنك تأخذ الراحة فى الليل والعمل فى النهار بقدرة الله دون أن تفعل شيئاً .

كل هذه الأشياء لم يخلقها الإنسان ، ولكنه وجدها فى الكون تعطيه بلا مقابل ولا جهد منه !

ألا تستحق هذه النعم أن نقول : الحمد لله على نعمة تسخير الكون لخدمة الإنسان ؟

وآيات الله سبحانه وتعالى فى كونه تستوجب الحمد .. فالحياة التى وهبها الله لنا ، والآيات التى أودعها فى كونه تدلنا على أن لهذا الكون خالقاً عظيماً .. فالكون بشمسه وقمره ونجومه وأرضه وكل ما فيه مما يفوق قدرة الإنسان ، ولا يستطيع أحد أن يدَّعيه لنفسه ، فلا أحد مهما بلغ علمه يستطيع أن يدعى أنه خلق الشمس ، أو أوجد

النجوم ، أو وضع الأرض ، أو وضع قوانين الكون ، أو أعطى غلافها الجوى ، أو خلق نفسه ، أو خلق غيره .

هذه الآيات كلها أعطتنا الدليل على وجود قوة عظمى ، وهى التى أوجدت وهى التى خلقت .. وهذه الآيات ليست ساكنة ، لتجعلنا فى سكونها ننساها ، بل هى متحركة لتلفتنا إلى خالق هذا الكون العظيم .

فالشمس تشرق فى الصباح فتذكرنا بإعجاز الخالق ، وتغيب فى المساء لتذكرنا بعظمة الخالق .. وتعاقب الليل والنهار يحدث أمامنا كل يوم عَلَّنا نلتفت ونفيق .. والمطر ينزل من السماء ليذكرنا بألوهية من أنزله .. والزرع يخرج من الأرض يُسْقَى بماء واحد ، ومع ذلك فإن كل نوع له لون وله شكل وله مذاق وله رائحة ، وله تكوين يختلف عن الآخر ، ويأتى الحصاد فيختفى الثمر والزرع .. ويأتى موسم الزراعة فيعود من جديد .

كل شىء فى هذا الكون متحرك ليذكرنا إذا نسينا ، ويعلمنا أن هناك خالقاً ، ونستطيع أن نمضى فى ذلك بلا نهاية ، فنِعَمُ الله لا تُعَدُّ ولا تُحصَى .. وكل واحدة منها تدلنا على وجود الحق سبحانه وتعالى ، وتعطينا الدليل الإيمانى على أن لهذا الكون خالقاً مبدعاً .. وأنه لا أحد يستطيع أن يدَّعى أنه خلق الكون أو خلق شيئاً مما فيه .. فالقضية محسومة لله .

(والحمد لله) لأنه وضع فى نفوسنا الإيمان الفطرى ، ثم أيده بإيمان عقلى بآياته فى كونه .

كل شيء في هذا الكون يقتضي الحمد ، ومع ذلك فإن الإنسان يمتدح الموجود وينسى المُوجِد . . فأنت حين ترى زهرة جميلة مثلاً ، أو زهرة غاية في الإبداع . . أو أيَّ خلق من خلق الله ، يشيع في نفسك الجمال تمتدح هذا الخلق . . فتقول : ما أجمل هذه الزهرة ، أو هذه الجوهرة ، أو هذا المخلوق ! !

ولكن المخلوق الذي امتدحته ، لم يُعْطِ صفة الجمال لنفسه . . فالزهرة لا دخل لها أن تكون جميلة أو غير جميلة ، والجوهرة لا دخل لها في عظمة خلقها . . وكل شيء في هذا الكون لم يضع الجمال لنفسه ، وإنما الذي وضع الجمال فيه هو الله سبحانه وتعالى ، فلا نخلط ونمدح المخلوق وننسى الخالق . . بل قُلْ : الحمد لله الذي أوجد في الكون ما يذكّرنا بعظمة الخالق ودقة الخلق .

ومنهج الله سبحانه وتعالى يقتضي منا الحمد ، فهو تبارك وتعالى أنزل منهجه ليرينا طريق الخير ، ويبعدنا عن طريق الشر .

فمنهج الله عز وجل الذي أنزله على رسله قد عرّفنا أن الله تبارك وتعالى هو الذي خلق لنا هذا الكون وخلقنا . . فدقة الخلق وعظمته تدلنا على عظمة خالقه ، ولكنها لا تستطيع أن تقول لنا مَن هو ، ولا ماذا يريد منا ، ولذلك أرسل الله رسله ، ليقولوا لنا : إن الذي خلق هذا الكون وخلقنا هو الله تبارك وتعالى ، وهذا يستوجب الحمد .

ومنهج الله يبين لنا ماذا يريد منا ، وكيف نعبده - جل وعلا - وهذا يستوجب الحمد ، ومنهج الله جل جلاله أعطانا الطريق وشرع

لنا أسلوب حياتنا تشريعاً حقاً .. فالله تبارك وتعالى لا يفرق بين أحد منّا .. ولا يفضل أحداً على أحد إلا بالتقوى ، فكلنا خلق متساوون أمام عدله المطلق .

إذن : فشريعة الحق ، وقول الحق ، وقضاء الحق هو من الله ، أما تشريعات الناس فلها هوًى ، تميّز بعضاً عن بعض .. وتأخذ حقوق بعض لتعطيها للآخرين ، ولذلك نجد في كل منهج بشرى ظلماً بشرياً .

ولكن الله سبحانه وتعالى حين أنزل المنهج قضى بالعدل بين الناس .. وأعطى كل ذى حق حقه ، وعلّمنا كيف تستقيم الحياة على الارض عندما تكون بعيدة عن الهوى البشرى خاضعة لعدل الله ، وهذا يستوجب الحمد .

والحق سبحانه وتعالى ، يستحق منا الحمد؛ لأنه لا يأخذ منا ولكنه يعطينا ، فالبشر في كل عصر يحاولون استغلال البشر .. لأنهم يطمعون فيما بين أيديهم من ثروات وأموال ، ولكن الله سبحانه وتعالى يعطينا ولا يأخذ منا ، عنده خزائن كل شيء مصداقاً لقوله جل جلاله :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) ﴾

[الحجر]

فالله سبحانه وتعالى دائم العطاء لخلقه ، والخلق يأخذون دائماً من نعَم الله ، فالعبودية لله تعطيك ولا تأخذ منك شيئاً ، وهذا يستوجب الحمد . .

والله سبحانه وتعالى في عطائه يحب أن يطلب منه الإنسان ، وأن يدعوه ، وأن يستعين به ، وهذا يستوجب الحمد ؛ لأنه يقينا الذل في الدنيا .

فأنت إن طلبت شيئاً من صاحب نفوذ ، فلا بد ان يحدد لك موعداً أو وقت الحديث ومدة المقابلة ، وقد يضيق بك فيقف لينهي اللقاء . . ولكن الله سبحانه وتعالى بابه مفتوح دائماً . . فأنت بين يديه عندما تريد ، وترفع يديك إلى السماء ، تدعو وقتما تحب ، وتسأل الله ما تشاء ، فيعطيك ما تريده إن كان خيراً لك . ويمنع عنك ما تريده إن كان شراً لك .

والله سبحانه وتعالى يستوجب الحمد حينما يطلب منك أن تدعوه ، وأن تسأله فيقول :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ﴾ [غافر]

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾ [البقرة]

والله سبحانه وتعالى يعرف ما فى نفسك ، ولذلك فإنه يعطيك دون أن تسأل ، واقرأ الحديث القدسى :

يقول رب العزة :

«مَنْ شغلَهُ ذكْرِى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» .

والله سبحانه وتعالى عطاؤه لا ينفد ، وخزائنه لا تفرغ ، فكلما سألته جل جلاله كان لديه المزيد ، ومهما سألته فإنه لا شيء عزيز على الله سبحانه وتعالى ، إذا أراد أن يحققه لك . . واقرأ قول الشاعر :

حَسْبُ نَفْسِى عزاً بأنّى عبدٌ — يَحتفِى بى بلا مواعيدَ ربُّ

هُوَ فى قُدْسه الأعـزّ ولكنْ — أنا ألقى متى وأين أحبُّ

إذن : عطاء الله سبحانه وتعالى يستوجب الحمد . . ومنعه العطاء يستوجب الحمد ، ووجود الله سبحانه وتعالى الواجب الوجود يستوجب الحمد . . فالله سبحانه يستحق الحمد لذاته .

وعندما نقول : (الحمد لله) فنحن نعبّر عن انفعالات متعددة . . وهى فى مجموعها تحمل العبودية والثناء والشكر والعرفان . . وكثير من الانفعالات التى تملأ النفس عندما تقول : (الحمد لله) كلها تحمل الثناء العاجز عن الشكر لكمال الله وعطائه . . هذه الانفعالات تأتى وتستقر فى القلب . . ثم تفيض من الجوارح على الكون كله .

فالحمد ليس ألفاظاً تردَّد باللسان ، ولكنها تمرّ أولاً على العقل الذى يعى معنى النعم . . ثم بعد ذلك تستقر فى القلب فينفعل بها . . وتنتقل

إلى الجوارح فأقوم وأصلى لله شاكراً ، ويهتز جسدى كله ، وتفيض الدمعة من عينى ، وينتقل هذا الانفعال كله إلى من حولى .

ونحاول توضيح ذلك . .

هب أننى فى أزمة أو كرب أو موقف سيؤدى إلى فضيحة . . وجاءنى من يفرج كربى فيعطينى مالاً أو يفتح لى طريقاً . . أول شئ أننى سأعقل هذا الجميل ، فأقول : إنه يستحق الشكر . . ثم ينزل هذا المعنى إلى قلبى فيهتز القلب إلى صانع هذا الجميل . . ثم تنفعل جوارحى لأترجم هذه العاطفة إلى عمل جميل يرضيه ، ثم أحدث الناس عن جميله وكرمه فيسارعون إلى الاتجاه إليه ، فتتسع دائرة الحمد وتنزل النعم على الناس . . فيمرون بنفس ما حدث لى فتتسع دائرة الشكر والحمد . « الحمد لله » تعطينا المزيد من النعم مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا نعرف أن الشكر على النعمة يعطينا مزيداً من النعمة . . فنشكر عليها فتعطينا المزيد ، وهكذا يظل الحمد دائماً والنعمة دائمة .

إننا لو استعرضنا حياتنا كلها . . نجد أن كل حركة فيها تقتضى الحمد ، عندما ننام ويأخذ الله سبحانه وتعالى أرواحنا ، ثم يردها إلينا عندما نستيقظ ، فإن هذا يوجب الحمد ، فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) ﴾ [الزمر]

وهكذا فإن مجرد أن نستيقظ من النوم ، ليرد الله علينا أرواحنا يستوجب الحمد ، فإذا قمنا من الفراش فالله سبحانه وتعالى هو الذى أعطانا القدرة على الحركة والنهوض ، ولولا عطاؤه ما استطعنا أن نقوم ، وهذا يستوجب الحمد .

فإذا تناولنا إفطارنا ، فالله هو الذى هيَّأ لنا من فضله هذا الطعام ، فإذا نزلنا إلى الطريق يسَّر الله لنا ما ينقلنا إلى مقر أعمالنا ، وإذا تحدثنا مع الناس فالله سبحانه وتعالى هو الذى أعطى ألسنتنا القدرة على النطق بما وهبه الله لنا من قدرة على التعبير والبيان ، وهذا يستوجب الحمد.

وإذا عُدْنا إلى بيوتنا ، فهو عز وجل الذى سَخَّرَ لنا زوجاتنا ورزقنا بأولادنا ، وهذا يستوجب الحمد .

إذن : فكل حركة حياة فى الدنيا من الإنسان تستوجب الحمد ، ولهذا لا بد أن يكون الإنسان حامداً دائماً ، بل إن الإنسان يجب أن يحمد الله على أى مكروه أصابه ؛ لأن الشىء الذى يعتبره شراً يكون عين الخير ، فالله تعالى يقول :

﴿ .. فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) ﴾
[النساء]

إن من البشر مَنْ إذا تحدثت عنه قدر ما استطعت لن توفيه حقه وتعرف له قدره كأنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام ، فماذا إذا كان الحديث عن الله جل وعلا؟

سوف يتحدث المتحدثون عن الحق تبارك وتعالى حتى تقوم الساعة ، ومع ذلك فسوف يَظلُّون فى إطار قوله تعالى :

﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) ﴾ [الحج]

وقوله تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) ﴾ [الزمر]